كالسلمون نعود لنموت
السفر الثاني

رواية

دار الوطن
للصحافة و الطباعة و النشر

أسفار ملحمة عشق في زمن الغضب

كالسلمون نعود لنموت

السفر الثاني

رواية

خالد أخازي

الطبعة الأولى 2022

دار الوطن
للصحافة و الطباعة و النشر

الكتاب : كالسلمون نعود لنموت
الكاتب : خالد أخازي
الصنف : رواية
الإيداع القانوني :
الترقيم الدولي :
الطبعة : الأولى 2022
الناشر : دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر
دار الوطن للصحافة و الطباعة و النشر
عمارة 7، رقم 1 زنقة الكوفة شارع مولاي يوسف الرباط/المغرب
تلفونات : 212537702120 + جوال : 2126.07.14.26.80+
البريد الإلكتروني: daralwatan2018@gmail.com
صفحتنا على فيس بوك : https://www.facebook.com/daralwatan2020
التصميم الداخلي والغلاف : هند الساعدي
تصميم الغلاف : سفيان الغولي
السحب : مطبعة بلال
حقوق الطبع والنشر محفوظة للكاتب
مدير النشر : عبد النبي الشراط

الإهداء

إلى دمشق وبغداد...
في انتظار الأغنية المشتهاة

من المفيد أن نضع علامات استفهام بين الحين والأخر على الأمور المسلّم بها. برتراند راسل

أصعب فصول الحكمة في الحياة هو ان تعرف كيف تصبح شيخاً كبيرا . طه حسين

يحتاج الإنسان إلي سنتين ليتعلم الكلام وخمسين ليتعلم الصمت. ارنست همنغواي

1

في الشقة يعمُّ الصمتُ ويخيم المَلَل، كلٌّ في جزيرة مغلقة، أمي العليلة، لا تتوقَّف عن الصلاة إلا للاستغفار أو التردُّد على دورة المياه حيث يلحُّ عليها البول... من ضعف مثانتها، وأمينة غارقة في عالم المسلسلات، وفيَّة لكل حلقة لحد الهوس... أشعر برغبة قوية في شرب بعض الكؤوس... أتذكَّر أن صاحب المهام الليلية الصعبة... رحل إلى حيث لا عودة... رحل الشيظمي... مات من العار والهوان... اختار موته بشجاعة، رحل بتذكرة ذهاب فقط... أتذكَّر قنينة «سكوتش» قد دسستها بين قمصاني في الدولاب... تهتدي يداي إليها بسهولة... وأنخرط في لعبة النسيان، مع الحرص على ألا تكشفني عينا أمي... ظِل أمينة يختلط تحت الضوء الخافت وظلال أخرى... تتقدَّم متثاقلة الخطو نحو صالون الشقة، حيث جلست على أريكة أمام التلفاز، أراوغ طيف الشيظمي بقدح تلو الآخر، لم أتخلص من هاجسه حيًّا وميتًا... تتسلَّل صورته إلى رأسي مُحدِثة فوضَى، ظننتُ أن عقلي حسم الأمر بموته، لكن أنا أعرف فعل الكأس الغادر... فكما تدفن الأسئلة وتؤجلها، تنعشها وتضخمها... نقَّبت عن اليقين... فوجدته بعيدًا وراء جدار الشك... بحثت عن شعور حاسم فلم أستطع أن أُحدِّد موقفي تجاه موته منتحرًا... فطفا السؤال المحرج تلو السؤال القاتل... المؤلم... هل أخذ جزاءه؟! هل يستحق الموت؟!

تداهمني فكرة سوداء، لقد قتلناه قبل أن يشنق نفسه، الرجل مات تلك الليلة، والذي نفَّذ في نفسه حكم الإعدام هو ما تبقَّى من ظِل رجل... هل عليَّ أن أحزن؟! هل عليَّ أن أشعر بالذنب؟! للأسف أنا في منطقة

شعورية محايدة... لستُ بالحزين لموته ولا بالسعيد؟! لا أشعر بالذنب ولا أشعر براحة ضمير... أنا مُعلَّق بين عالمين... عالم الشفقة وعالم القسوة... ذكرياتي معه لم تشفع له عندي... لقد كنتُ خصمَه قبل أن أعلم أنه فقَدَ فحولته... أليس من حق زينة... ضحيته الجريحة... أن أكون في صفها...؟! هل ما ارتكبه في حقها يشفع لنا أيضًا ما فعلناه له؟! هل نختلف عنه؟! بل هل نختلف عن الجلّاد الكبير المحاط بكلابه سليمان جبار؟!

ما الذي حطمه يا ترى؟! أهو الشعور بالذنب...؟! أم الشعور بالخزي والعار؟! لو كان ندمه قويًّا... جارفًا... لا يطاق على فعلته النكراء ما انتظر كل هذه السنوات ليضع حدًّا لعذابه... يبدو أن كبرياءه قتله... سيف العار أقوى من سنان الشعور بالذنب... الشعور بالذنب يُحتَمَل لكن الشعور بالعار لا يطاق...!!

أمينة خرجت من غرفتها أكثر من مرة، تبدو لي مرتبكة على غير عادتها، كأنها تنوي فتح جبهة معي الليلة، لن يطولَ صمتُها... أشعر بها تُصارع شيئًا ما... أشعر بها راغبة في شيء ما... أيكون سريري؟! متردِّدة... تدخل المطبخ... تحضر قنينة ماء... تعبُّ الماء عبًّا... تنفسها يفضح اضطرابها... تستجمع قواها... تنظر إليَّ برهة... تطلق زفيرًا طويلًا... وتقول وهي تبحث عن الكلمات:

- أريد الحديث معك...

يا رب... مضى زمن طويل لم أسمعها تطلب طلبًا من هذا النوع... أي حديث هذا ترنو إليه معي؟! هل علمَتْ شيئًا عن علاقتي بزينة؟! هل أخبرها الشيظمي بشيء قبل سفره انتقامًا مني؟! هل لاحظَتْ تبدُّل أحوالي وأعراض السعادة في سكناتي وحركاتي؟! فبعض النساء يُؤَوِّلنَ طفح السعادة عند الرجال، بوجود امرأة أخرى؟! لكن... أعلم أن الأمر ما كان ليُهِمَّها... منذ سنين استقالت من وظيفتها على سرير الزوجية... وحصرَتْ نفسَها في زاوية جد ضيِّقة... لم أحاسبها يومًا على حق من حقوقي العادية... والحقيقة أن كبريائي منعني من أن أعطيها انطباعًا أن الأمر ساءني... تجاهلتها كما

تجاهلتني... وعوَّضْت برودة سريري، بدفء أسِرَّة بنات الليل... وبالعلاقات العابرة... كنت فقط أبحث عن توازني... كنت أقوي صمودي أمام تمنُّعِها بعلاقات جنسية عابرة... كنت أخشى من ضعفي لحظة الكبت... تخرجني من حيرتي وتقول بإلحاح...:

- هل لمَ تحاول أبدًا معرفة سبب رفضي تقاسم السرير معك؟!

محافظًا على كبريائي... أردُّ مصطنعًا عدم اكتراثي للأمر، مُركِّزًا نظري على التلفاز:

- لا يهم... كدتُ أنسى أن لي زوجةً... والأمركان قرارك واختيارك... لستُ من النوع الذي يتوسَّل من أجل لحظة متعة... السرير تناغم... رضا... مشاركة... وليس أداءً من طرف واحد... رغبة مشتركة... وليس وظيفة تؤديها المرأة في فراش زوجها... لهذا تقبَّلت الأمر...

- أريدك الليلة أن تكون متفهِّمًا...

أرمي في جوفي كأسين متتابعين، أهيئ روحي لكل الاحتمالات، أتظاهر بعدم الاكتراث، تقترب مني وتقول في حزن، وأكاد أرى عينيها مغرورقتَيْن:

- رجاءً... أريدك أن تسمع هذه الليلة... ربما لن تكون عندي الشجاعة في الأيام المقبلة...

ماذا تقول هذه المرأة...؟! تحتاج للشجاعة...؟! الشجاعة...؟! يا رب...! بماذا تريد الاعتراف هذه المخلوقة؟! أودُّ لو أصُدُّها... وأدفعُها للتوقف عن البوح... لكن فضولي وكبريائي... ألحَّا على عقلي في معرفة طبيعة هذا البوح، أقول لها وأنا أسرح بنظراتي بعيدًا:

- أنا أسمع... تكلمي...!

- لقد فكرتُ الليالي الطوال... لأتخذ هذا القرار الصعب... نفسي لهذا اللحظة، وأنا أمنِّي النفس بسعة صدرك... وعفوك...

هبَّت نار ساخنة في شراييني... وأحسست بسخونة في أذني... وأنا أردد في نفسي «أتكون العاهرة على علاقة مع غيري؟!... أتكون خانتني وتريد عفوي؟!... ماذا تظنني...؟! ديوثًا باردَ الرجولةِ لا غيرة في ولا شهامة رجل؟!

هل «غسلَتْ يديها» على كرامتي لهذه الدرجة؟! لا... سيدتي... أنا مغربي قُحٌّ ومتفتح في كل شيء إلا في هذا الأمر... متفتح لا مُتفسِّخ... مُتحرِّر لا منحل... صفح ولا عفو... فقد نشأت في مجتمع لا يتسامح مع خيانة المرأة... لست مستعدًّا لا عقليًا ولا عاطفيًا للعفو عن الخيانة... خانتي إذن هذه العاهرة... وتطلب الآن عفوي...! أي عفو أعطيك...؟! تستحقين مصير الشيطمي... سحلًا... بل رجمًا بالحجارة...»!!

كأنها شعرَتْ، بتناسل التأويلات في عقلي الذي لم يعد يحتمل انفجار بركان الشك الحارق... فتقول في نبرة حزينة، عكست ضعفًا ما:

- اسمع عزيز...! رجاءً... انظر إليَّ... لا تتجاهلني... أنا في حاجة إلى كل تركيزك... منذ تزوَّجنا... كنتُ أتظاهر بالشعور بالنشوة وأنا بين أحضانك... العيبُ ليس فيك... في أنا... بحثت عن السبب... فاكتشفت أنني مصابة ببرود جنسي... فلم أعد قادرةً على لعب دور المرأة الملتهبة في فراشك... دون استشارتك... زرت الأطباء وأكدوا لي أن الأمر نفسي لا غير... والحقيقة أنك كلما ضاجعتني... إلا وكان الأمر مؤلما لي نفسيًا وجسديًا... يتملكني شعور بالذنب... أحتقر نفسي... فأغلق كل منافذ المتعة... فكرتُ أن أقاسمك شعوري وألمي... لكني لم أستطع...

ماذا تقول هذه المرأة... برود جنسي...؟! لقد كانت ملتهبة بين يدي... نارًا... لهبًا... ما هذا العبث...؟! بقدر ما حيرني عذرها... أراحني... وأزاح من فوق رقبتي سيف الخيانة الذي كان سيُجهِز على كرامتي وكبريائي... سألتها، باهتمام هذه المرة:

- لماذا لُذتِ بالصمت كل هذه السنين...؟!

- كنت آمل أن أجد دفء العاطفة فيك، ليجد جسمي توازنه... لكن الأمر القاسي الذي سبب لي هذا الخوف، والبرود الجنسي، هو أكبر بكثير من أن أكشف سره بسهولة... هناك حقيقة لم يسبق لي أن صرَّحتُ بها لك... لم أعد قادرة على تحمُّل الشعور بالذنب... واحتقار نفسي... لقد تعرَّضتُ للاغتصاب عدة مرات...!!

تنهار وتنخرط في نوبة بكاء وعويل وهي تلتطم صدرها وتصرخ:

- اغتصبني خالي... اغتال براءتي... جرحني جرحًا لن يُشفَى... أبدًا... يا ويلي...!

تختلط في صدري مشاعر الغضب والشفقة، أدنو منها أُجلِسها على الأريكة، بعدما كاد أن يُغمَى عليها، أسقيها كأس ماء... تستمرُّ في النحيب... أشدُّ على يدها في حزن وعطف... أسألها في حنو:

- يا أمينة... اهدئي... وقولي لي... هل لك خال على قيد الحياة...؟!

- نعم... مات قبل الزواج بك بسنوات... لقد كان وحشًا... قضى عمره في السجون... مُددًا مختلفة... منحرفًا... طاغية... استغلني... وعبث ببراءتي وعمري لم يتجاوز العاشرة... ثم فض بكارتي... وأنا في السادسة عشرة من عمري... تزوجَتْ أمي بأبي وسكنا مع جدي... وكان لخالي غرفة على السطوح... يستغلُّ غياب الجميع أو وجودي بمفردي على السطح... لينقض عليَّ كالذئب... مات في حادثة سير... ظننتُ أنني تخلصت من شبحه... من تسلُّله الليلي إلى غرفتي... من انقضاضه عليَّ في جنح الظلام... لكن هيهات... ظلت أصابعه تسكن جسدي... ظل صوته مُرعبًا في عقلي وقلبي... ظلَّتْ صورتُه مخيفة... قاسية تتسلل إليَّ كلما اقتربتَ مني... أو لمستَنِي... كنتُ أحيانًا أراه فيك... بل أراه في كل الرجال...!!

- لكني تزوجتك بكرًا... عذراء...!!

تضع راحة كفها على فمها، في وجل عكستها عيناه بريقًا وجحوظًا وفي حزن طاغٍ على نبرة صوتها تردف:

- خدعتك للمرأة الثانية... رمَّمتُ عذريتي... بكارتي... عند طبيب نساء... قبل أن تدخل بي...!

هل كنتُ غبيًّا... حتى لا أميز بين بكارة مُرمَّمة وأخرى حقيقية؟! وما الفرق بينهما؟! لا أدري؟!... في الحقيقة، لقد رأيتُ بُقع الدم وكانت كافيةً لأفتخر بعذريتها... لم أشكَّ لحظة في الأمر... هل أرحمها؟! هل أُشفق عليها؟! هل هي ضحية؟!

- لِمَ لَمْ تخبري أباك... أمك... أخاك... أحدًا من العائلة... الشرطة...؟!

- في البداية... كان الخوف منه يمنعني من البوح لأمي على الأقل... مع الوقت أصبحتُ أخاف على أمي وأبي منه... كان يُهدِّدني بقتلهما... إذا أخبرتهما بشيء... أما أخي فكما تعلم كان أصغر مني سنًّا...!

تُطرِق الجبين حزنًا وخجلًا، تقول في حسرة:

- يا ويلي من نفسي... لم أعُد أصُدُّه مع مرور الوقت... وأصبحتُ أستسلم بين يديه دون ردَّة فعل...

- ضحكَتْ عليَّ... كنتُ عريس الغفلة...!!

- هذا هو الجانب المؤلم في حياتي معكِ... أما الأشدُّ إيلامًا... فهو أنني أصبحت باردة جنسيًّا... كلما اقتربتَ مني أداري خوفي... وذعري المرضي... بالشرود...

- لقد كنتِ سعيدةً في الفراش في البداية!!

- سامِحني... كنت أمثل... كنت أدَّعي ذلك... كنت أتظاهر... في العمق كنت أتألَّم... أرتعش خوفًا... لي طلب عندك رجاءً... لم أعد قادرةً على لعب دور المرأة السعيدة... الملتهبة في فراشك... طلِّقني... رجاءً... أتوسل إليك...!

تنخرط في بكاء شديد، تنتحب... ثم تجثو على ركبتيها في ضعف لتقبيل قدمَيَّ، يؤلمني ضعفها، أحسُّ بقلبي ينفطر، فأسحب قدمي... وأقف... صائحًا:

- لا... أمينة... انهضي... أتفهَّمُك... لكن هل ضروري الطلاق...؟! لا تهمني بكارتك التي فُضَّت بالغصب... كان عليكِ أن تقولي الحقيقة فقط... لا أن تقدمي لي عذرية مزيفة...!!

تغلبني الدموع، أنخرط في البكاء بشكل هستيري... لا أحبُّ ضعف المرأة، أشفق عليها... أضمُّها إلى صدري، فتجفل كفرسٍ خائفةٍ... وتصيح... وقد اختلطت الكلمات بالنحيب الحادّ:

- رجاءً... حرِّرني من عذابي... واغفر لي... سامحني... لقد فعلتُ المستحيل لأدفعك لاتخاذ هذا القرار... أهملتُ بيتك... تجاهلتُ أمك في

أصعب الظروف... أردتُ أن يقسوَ قلبُك... أن تكرهني... أن ترمي بي خارج حياتك... لكن للأسف... كنتَ صبورًا... هادئًا... مما زاد في عذابي وشعوري بالألم... طلقني...!

أسترجع شريط الأيام، وأجد تفسيرًا بيّنًا، واضحًا لتجاهُلها لي ولأمي، ولغضبها منها... كانت تدفعني دفعًا إلى اتخاذ قرار الانفصال...!

- غدًا... نكمل الحديث...!

تشدني من تلابيب ملابسي، وتصيح باكية:

- عدني بأن يظلَّ الأمر سرًّا بيننا... عدني بأن تطلقني... عدني...!

تسمع أمي صراخها لشدته... تغادر غرفتها... مذعورةً تدلف وهي تلهث نحونا:

- ماذا وقع... عزيز؟! من هاته المرأة؟!

- نعم أمي... لا شيء... عودي إلى الغرفة رجاءً واستريحي...!

هَمُّ أمي ينضاف إلى هَمِّ أمينة... كيف لك يا قلبي أن تتحمَّل كل هذا العذاب...؟! وحدها الكأس تساعد العقل على ترميم التصدُّعات القوية، على تحمُّل هذا الزلزال الوجداني المُدمِّر، وحدَها الكأس تلقح القلب مؤقتًا ضد وباء اليأس... أمي... مسحت من ذاكرتها أمينة، وأمينة أَلِفَت الوضع... وأدركتُ الآن سبب نِقمتها المفتعلَة منها... تجرُّني أمي وتكاد تزلُّ قدمها وهي تصرخ:

- اتركي ابني أيتها العاهرة... اخرجي... من البيت... تعالَ... ألم تمَلَّ بعدُ حياتَك هذه؟!

تغافلها أمينة، تقبِّل رأسها وهي تبكي مرددة:

- سامحيني... سامحيني...!

تردُّ أمي بقسوة:

- سأسامحك إن تركت ابني عزيز وشأنه... هيا اخرجي...!

تعود أمينة إلى غرفتها منكسرة... محبطة... أرافق أمي إلى غرفتها وأسندها على كتفي... أجلس إلى جانبها... تضع يدها على رأسي، تقرأ الفاتحة

والمعوذتين... تتمدَّد لتنام... أسمعها تُدحرج حبات السبحة تُكبِّر... تُسبِّح... تَحمَد... تُوحِّد... ثم تغفو... أطفئ النور، وأخرج في هدوء، يصلني صوت التلفازمن الغرفة الأخرى حيث اعتادت أن تنام أمينة... شدة الصراع في المسلسل... التقطتها أذناي... أصيب السمع... يصلني حوار بلهجة عربية شامية... يرن الهاتف... أقرأ على واجهته... اسم زينة، أردُّ بسرعة:

- ألو... عزيز... أنا زينة...
- أعرف... هل من بأس؟!
- ما بال صوتك متغيِّر...؟! هل وقع مكروه...؟!
- لا... فقط أشعر بالتعب...!

تقهقه، أشعر بنبرة الفرح في صوتها، لسانها غير مُلتوٍ، حتمًا هي في حالة صحو، تقول:

- ألا تريد تغيير الأجواء...؟! علينا الليلة أن نحتفل بموت «الكلب»... وعلى حسابي... «راني توحشتك»!!

استرجعتُ لحظة إخباري لها بموت الشيظمي منتحرًا شنقًا، وكيف فاجأتني ردَّة فعلها الباردة، حيث قطعت المكالمة فورًا، لا أشك الآن أنها أخذت الوقت الكافي، لتتعامل مع الموقف... هي سعيدة لموته... ولا أظنها ستكتفي بذلك، لا بد أنها تُخطط لعمِّها خطة جهنمية، ففي قلبها من الحقد ما يكفي لتذبح الجميع... لن تكتفي... حقدها الآن في أوج لهبه... نار لن تخمد حتى تطال الحاج سليمان والبقية...!

- ألو عزيز... هل ما زلتَ معي...؟!
- نعم... فقط... غيرت المكان... حتى لا تسمعني أمينة...!

غيرَتْ من لهجتها، وغدَتْ لنبرتها قسوة لا تخلو من حزن وهي تردف:

- وهل يهمك أمرها...؟! المهم... أنا أنتظرك في سيارة منير في الزقاق خلف العمارة... لا تتركني أنتظر...!

قبل أن أغادر الشقة، أنزع ورقة اليومية المعلقة على باب الشقة... في مربعات متجاورة توزَّعت تفاصيل الزمن، ساعات قليلة ويبتلع الزمن

رمق غشت الأخير من عام 2001 التي حَبِلت بأحداث غريبة... في حياتي... أبحث أسفل الورقة عن «فأل اليوم»... أقرأ في غرابة «في العجلة الندامة وفي التأني السلامة»... تستفزُّ مشاعري بمعناها الذي يكاد يتناغم مع اللحظة، يوشك عقلي أن يعتبرها رسالةً من السماء، أفكر في الاعتذار... لكني لم أستطع ترويض رغبتي الجامحة.

2

على الشريط الساحلي لمنطقة عين الذئاب، ينتصب ملهى «الوردة» على ربوة رملية، دون أن يشكل نشازًا جماليًّا على الشاطئ، أضواء واجهته القوية... والقزحية، الغامزة... والمتغيرة الألوان والأشكال تزيد من جماليته وتميُّزه عن باقي «كباريهات» المنطقة... غمزات الواجهات المضيئة تأسر القلب... على البوابة... ثلاثة حراس ذوو بنيات قوية، يوارون نظراتهم وراء نظارات ذات زجاج مُعتِم، يُسوُّون بقسوة من حين لآخر بدلاتهم الزرقاء في شموخ غريب، ولا ينفكُّون عن تسوية عقد أربطة العنق... يقفون منتصبين، لا شيء يُغيِّر من قسمات وجوههم القاسية، غير استقبال لزبون معروف، حيث يُفسحون له المجال للدخول بابتسامة واضحة وترحيب مبالغ فيه، يعكس قيمة الزبون وموقعه الاجتماعي.

توقَّف منير بالسيارة على الرصيف المجاور للملهَى، أسرع أحد الحراس الخُطَى، نحوه مدَّ إليه المفاتيح، وهو يقول:

- اركنْها في الزقاق...

- نعم... سيدي منير...!

تسبقنا زينة نحو الملهى، تتمايل في جسدها البهي، وقد ارتدت فستانًا أزرق محصورًا عند ركبتيها، يلمع كأنه مشحون بطاقة كهربائية، بحذائها ذي الكعب العالي المُغري، تُوقِع خطواتٍ مثيرةً بطقطقات على الأرض وهي تسير في غنج نحو البوابة... أسير وراءها، يُفسَح لها المجال بتقدير كبير، في ممرٍّ ضيِّق يؤدي إلى سلم مغطى ببساط أحمر، السلم يؤدي إلى شبه دهليز تحت أرضي، ننزل معًا، يدي في يدها، ضوضاء موسيقى صاخبة تستقبلنا

وسط سحابات من الدخان، في الوسط حلبة رقص سُلِّط عليها أضواء ملوَّنة مترنحة، وقد تدلَّى من سقفها كرتان بلوريتان تترنحان مرسلةً أضواء مختلفة، تُعمِّق الإحساس بالنشوة والغرابة... فتزيد من تأجُّج العواطف، وتحرر الأجساد في رقص قوي، لفتيات من مختلف الأعمار، في ألبسة مثيرة، تكشف النهود وتفضح معالم الأجساد أكثر مما تسترها، شباب وكهول بل وشيوخ... ينخرطون في الرقص... تبادلُ الأنخاب، لا ينقطع... لغط... وصياح... أجساد في وطيس الرقص تكاد تلتصق ببعضها بعضًا... متحرِّرة بالمفعول السحري للخمرة، والأضواء الغامزة، الساحرة... والجموح هنا سيد الموقف... تسحبني زينة إلى طاولة، وتُجلِسني، وتقول وهي تصيح قرب أذني حتى أسمعها وسط ضجيج موسيقى لا تكاد تُميِّز كلماتها:

- سأعود بعد حين... لا تتذمَّر... خذ الأمور ببساطة...!

تشير بيدها إلى النادل، ثم تختفي في غرفة وراء ستارة المرقص.

لا أعرف متى غيَّر منير ملابسه وارتدى فستانًا نسائيًّا مثيرًا، واصطنع صدرًا مثيرًا أبرز به ثدييه الضامرَيْن أصلًا، ووضع شعرًا مستعارًا، وطلا وجهه بمساحيق الزينة، أحمر الشفاه ساطع على شفتيه، يتقاسم طاولة مع كهل، لعبت به الخمرة، فبدا شبه غائب عن الوعي، مترنِّحًا... الكل يُحيِّي منير باسمه الأنثوي دون غضاضة، وبعضهم يرفع له الأقداح نخبًا، وينادونه دون حرج» في ضجَّة «منيرة»، يغادر طاولته، يأتي نحوي، ويقول بنبرة أنثوية:

- هذا عالمي الحقيقي... حيث أكون أنا كما أنا...

يعانقني أشمُّ عبق عطره قويًّا... يقهقه... وهو يقول:

- لا تخف... أنت عزيز عليَّ مثل أخي...!

انسحب الجميع من حلبة الرقص، ثم تجلَّى وسط الضباب الاصطناعي المنبعث من قنوات ذات فوهات في الزوايا... محور فضي، أسطواني لامع، برَّاق وسط الحلبة، وراقصة بلباس فاحش، مثير...

تبان رقيق بخيوط رفيعة، وحاملة أثداءً يكاد الثديان ينفجران منها، وهما يتطلعان في إثارة... تنحني قبل أن تبدأ وصلَتَها... فيعمُّ التصفيق المكان، فتبدأ الفتاة الغضَّة الرقص على المحور مستفزَّة الشهوات غير المعلنة والرغبات الدفينة، وسط ضوء يسطع ثم يخفت... سحابة دخان اصطناعي تلفُّها، يصير المشهد كالسحر... يتقدَّم بعض الزبناء، يمدون أياديهم للمس الجسد الصاخب... المثير... تدنو منهم... تستثيرهم... تستفزُّ جموحهم، بحركات جنسية... ثم تُلجمهم بانسحاب سَلِس راقص... حارس مفتول العضلات يقف سدًّا منيعًا دون وصول الألغام البشرية القابلة للانفجار في أي لحظة إلى الجسد الطريّ، تُوزِّع الراقصة... قبلاتٍ في الهواء... يلتقطها البعض في نشوةٍ... تتقاطر الأوراق النقدية على الحلبة، في تنافس غريب بين السكارى،... تؤدي الفتاة وصلَتَها... فاسحة المجال، لفتاة أخرى، شقراء... مثيرة... أكاد أجزم أنها غير مغربية... تؤدِّي الفتاة الدورَ نفسه، وسط شطحات الأضواء وإيقاعات موسيقية تساعد الجسد على ممارسة لعبة الغواية...

حين تنتهي وصلات الرقص المحوري، تخرج زينة... على مسرح صغير... تؤدي وصلة غنائية، أمازيغية رائعة... جبليَّة العمق، أطلسية الإيقاع... شجية... يهتز السكارى لمواويلها، يرشُّونها بالأوراق النقدية، تسمح لهم بالرقص على المسرح... يراقصها هذا... ويمطرها ذاك بجُودِه... لكن لا أحد تجاوز حدَّه...!

وبعدَ ساعة من الغناء التحقَتْ بطاولتي... سترت جسدها، بلحافٍ فضي يومض تحت الأضواء... مثير شفاف... تجلس وهي تردُّ على الأنخاب، وعلى المديح بالابتسامات...!

- لنحتفل بموت الكلب...!

تفتح قنينة «ويسكي» وتسكب... تملأ كأسَيْن، ثم تفاجأ ب«منير» يجلس على الطاولة:

- نحتفل جميعًا... لستما وحدكما...!

تضحك... تدفع بكأسها ليقرع كأسي، يدسُّ منير كأسَه بين كأسينا... تعبُّه عبًّا... وتقول ولم يزغ البصر بعدُ:

- هذه مهنتي... لكن لا تظن أنني عاهرة... لا أحد يمسُّ شعرة من رأسي... أنا فنانة...!

لُذتُ بالصمت وأنا في ذهول مما رأيتُ، هذا عالم غريب عني كل الغرابة، فراقصة المحور كانت بلغارية الأصل حسب كلام زينة... وفي هذا الفضاء... قنوات متعدِّدة لتبذير الأموال... لتبديدها... بلا ألَمٍ ولا حسرة... لم تكن بالقليلة، بل كانت الأوراق النقدية من فئة 200 درهم تؤدَّى رُزمًا، أو تُرمَى تحت أقدام الراقصات... وكانت الفواتير تَبلع بسهولة الملايين، كل شيء هنا مُباح، مِن شَم الكوكايين إلى تدخين لفافات الحشيش، وابتلاع أقراص السعادة... كل شيء له مفتاحه... المال... بعض الرجال يُقبِّلون الفتيات في زوايا مظلمة، وآخرون يكتفون بالمداعبة، والتقبيل والعناق... كأن الكل مُغيَّب... لا قانون هنا غير قانون المال والجاه والسلطة... تنظر إليَّ زينة وتقول:

- أرأيتَ أين تُصرف الأموال بدون حساب...؟!

- ومن أين لهم كل هاته الأموال؟!

في سخرية تردُّ:

- ما يأتي بسهولة دون عرق ولا تعب يُصرف بسهولة...!

- لم أفهم...!

- هنا... تُبذَّر أموال الرشاوى... والمخدرات... وليس عليك أن تنبش كثيرًا في الأمر... دعنا من هذا... قل ما الذي قتل الشيظمي أهو الخوف أم الذل؟!

- أظنهما معا... ربما خاف أن تُبلغي عنه... ربما خنقه الإحساس بالعار... ربما هما معًا...!

- وهل لأمثاله شرف... وشهامة؟! لم يقتله غير الجبن... صدقني... لو لم يكن جبانًا... نذلًا ما نفَّذ جريمته النكراء إرضاءً لعمي... وطمعًا في فُتات موائده العفنة...!

- حتى المجرمون لهم شرف... بل أحيانًا الشرف هو الذي يقوي الانتماء إلى أعتى المافيات...!

- المرحلة القادمة... لا بد أن أنفذ الجزء المهم من الخطة... لن أدع عمّي الجبان يرتع في نعيمه دون رقيب ولا حساب... سأجعله يندم على اليوم الذي ولدَتْه أُمُّه فيه... أقسم أن أجعله أضحوكةً بين الناس...

- وما السبيل إليه وهو مُحاط بالجاه والسلطة والمال... وكلابه شرسة من البشر الأنذال؟!

- لكل رجل نقطة ضعف... الجشع والجنس هما مفتاحه... لننسَ الأمر الآن... ولكل شيء أوان...!

تشعل سيجارة، تمتص دخانها بنهم، تملأ لي الكأس تلو الأخرى، يغادر الطاولة منير، يطوف حول الطاولات الأخرى، مبتسمًا، معانقًا... مقبِّلًا... ساقيًا هذا، ومُغيِّرًا للآخر المرمدة، أو ناهرًا النادل، داعيًا إياه أن يُنظف طاولةً ما... تجرني إلى مشرب آخر في عمق الملهى، هنا ألتقي زبيدة وراء المقصف، يظهر صدرها عاريًا، مستفزًّا للشهوات... مثيرًا... تشرئب بعنقها... وتقبلني... وتقول بلكنة جميلة:

- بونسوار...!

أكتشف الآن أن زبيدة لعبت دور المنظفة بإتقان، لأني الآن أمام امرأة عصرية... تتكلم الفرنسية... وتجيد خلط «الكوكتيل»... تسقيني كأسًا... تفوح بنكهة وتقول وهي مبتسمة:

- لنحتفل ببداية جديدة...!

على المشرب... فتيات رفقة رجال... الغريب أن أعمارهن أصغر بكثير من مرافقيهن من الرجال... الكهول والشيوخ أحيانًا... هذا الفضاء الصغير الموجود في عمق الملهى، لا موسيقى صاخبة فيه، فقط عازف حالم يغازل أصابع البيانو... وهدوء رومانسي جميل... أنخرط مع زبيدة في حديث ثنائي دون أن أشغلها عن أداء مهامها:

- زبيدة... أنا لا أعرف عنكِ شيئًا... صورتك القديمة تبدَّدت الآن... لم تعودي زبيدة الخادمة... وبالمناسبة... لم تتقني الدور جيدًا... أتذكر محنتك وأنت تحملين القفف... خانتك أصابعك غير المعتادة على الأشغال المضنية... وكدتِ أن تفضحي نفسك ومنيرًا يوم تظاهرتِ بالغضب منه... يا داهية...!

تقهقه فتسترعي انتباه الزبناء، ضحكتها العالية، وتقول في مكر:

- ألم أربكك أنت أيضًا؟! كدت تسقط في المصيدة تلك الليلة لولا الشيطي الذي أنقذك من إغرائي... وماذا تريد أن تعرف؟!

- ومن لا يسقط في شباكك يا ماكرة؟!!

- ماذا تريد أن تعرف عني يا أمير الماكرين؟!

أبتسم... أتجرَّع جرعات من كأسي... وأنا أرفعها عاليًا، نخبًا لها وأقول:

- لا أعرف بالضبط... لكن... اعذريني... الأمر لا يعدو كونه فضولًا... لا تُعيري الأمر اهتمامًا...!

- أتريد أن تعرف...؟! اسمع إذن... فلا أحد منَّا بلا مأساة... ولا فتاة ملهى أو حانة اختارت هذا الطريق حبًّا ورضًا... أبدًا... كلهن ضحايا... صدقني...!

- أعرف... أنهن مُكرَهات لم يختاروا العمل في هذه الأجواء عن طيب خاطر...!

تسكب لنفسها كأس نبيذ، تسند ذقنها بيدها ومرفقها على المشرب يسند رأسها وتقول وهي تنظر:

«أنا «مزابية» الأصل... كبرت في إحدى قبائل «مزاب»، أرض الرجال والكبرياء، أرض الصالحين والأسياد حصلت على البكالوريا... والتحقت بالجامعة بالدار البيضاء... كنت مخطوبة لابن عمي... لا أعرف كيف سقطتُ في شِراك أحد الأساتذة، كانت تجربة مؤلمة لي، أحببته... وظننته فارس أحلامي، فتوطَّدت علاقتي به... أعطيته ذاتي طواعيةً... كان يقول لي إن مسألة زواجنا هي مسألة وقت فقط...!

عدت في الصيف إلى بيت الوالد، وانتظرت أن يأتي لخطبتي والزواج مني، عمِّي بدأ يُلِحُّ، ولم يكن ممكنًا أن أجلب العار لأسرتي... فلم أعد عذراء... عدتُ إلى الدار البيضاء أبحث عنه... فصُدمت عندما علمت أنه تزوج بأستاذة زميلة له وذهبا للعمل في قطر... لم أجد مَخرجًا لي من ورطتي سوى العمل في الحانات، جمالي وتكويني جعلاني أحصل على عمل في أحسن الملاهي... إلى أن التقيت بشارل...».

- من هو شارل...؟!

- إنه العجوز الجالس هناك... على الطاولة في الركن المظلم، حيث تضيء طاولتَه شمعةٌ...!

ألتفت ورائي، ظهرلي عجوز ضخم الجثة، فائض البطن، أشيب زغب الذراعين والحاجبين... حليق الرأس، يُدخن سيجارًا ويلهو بدوائر الدخان التي صارت واضحةً وسط خفوت الضوء، أمامه قنينة نبيذ في سطل فضي، وكأس كروي بساق رقيقة وقاعدة دائرية:

- وما علاقتك به؟!

- إنه هو الذي انتشلني من الضياع، رغم أنه لم يتزوجني، لأني أعاشره معاشرة الزوج لزوجته...! ببساطة أنا خليلته... أو قُلْ عشيقته...!

- هل انقطعت علاقتك بأسرتك...؟!

- طبعًا... وماذا تنتظر؟! أن يستقبلوني استقبال المنتصرين...! أقسَم والدي ألا أدخل البيت وإن رآني يقتلني ويرمي بجثتي جيفةً للكلاب... وحدَها أمي مِن حين لآخر أراها... تتذرَّع بزيارة أحد أخوالي في الدار البيضاء فأراها... دعنا من هذا... خذ كوكتيل بالأناناس...!

عند الفجر... نغادر جميعًا، يقود السيارة منير، بجانبه زبيدة، وأنا وزينة في المقاعد الخلفية، تضع رأسها على كتفي... وتغفو... قارئ الأقراص، يمنحنا هدوءًا نفسيًّا وهو يطلق موسيقى هادئة، يملأ صوت المؤذن فجأةً الأجواء، يطفئ منير بحركة عفوية سريعة القارئ... ينتظر نهاية الأذان... أستغرب لسلوكه وهو يُرهف السمع وقد تغيَّرت ملامح

وجهه، كأنه فزع من شيء ما، تنهيداته تختلط وتنهيدات زبيدة التي قالت في أسى:

- الله يعفو عنا...!!

يرد عليها بنبرة أسى قوية:

- يا رب... آمين...!!

على الطريق... صخب السكارَى لا رادع له، مشاجرات وشتائم فاحشة على الملأ... بنات الليل في صراخ وضجَّة وتلاسُن... من أجل الزبائن... مشادَّات هنا وهناك... كائنات تُفرغ ما في بطنها على الأرصفة، سيارات نفيسة... تتسابق في جنون، يُطِل بعض ركابها من سقوفها المفتوحة، يصرخون... يغنون... يلوحون بالقنينات... يقذفون بها... فتتشظَّى على الطريق أو الأرصفة...!

ضباب مفاجئ لم أعهده بالدار البيضاء مطلع شتنبر، صعَّب الرؤية، لفَّ السيارةَ فجأة لفَّة مفاجئة... دون سابق إنذار، يُغيِّر منير الأضواء ويجعلها قويَّة، ليُبدد كثافتَه ثم يُشعل سيجارة، بعدما شغَّل ماسح الزجاج، يتوقف في الطريق فجأة... يتوارى وراء شجرة، ليتبوَّل... يتبادر إلى ذهني سؤال سخيف، تُرَى هل يتبول واقفًا أما جالسًا؟!

مع إقامة صلاة الفجر، نلجُ شقة 11 يناير، من كثرة التعب يتوزَّع الجميع على الأرائك المختلفة... غير أن زينة تسحبني في دلال وتهتُّك وهي تنظر إلى عيني نظرات ماجنة وتهمس:

- «الحب ديالي أجي معي...» هذه هي غرفتك... معي...!

تسبقني إليها... أعود من دورة المياه، أجد منامةً على السرير، أغيِّر ملابسي، زينة مستلقية في ملابسها دون تغيير وقد غطَّت في نوم عميق، أنزع حذاءها... أسوي جسدها على السرير، أضع وسادةً تحت رأسها، أندسُّ تحت الغطاء، أطفئ النور... فإذا بيدها تتلمَّس طريقها نحوي... وهي تقول مغمضة العينين:

- أين أنت يا حبيبي؟! فينك يا عمري...؟!

لا أردُّ عليها... أضمُّها... تضع رأسها على صدري... وتعود للنوم... وددتُ ما تبقَّى من هذه الليلة أن أحكي لها عن مرض أمي، وحديثي مع أمينة... لكن يبدو أن عياءها كان شديدًا... نفسيًّا وعصبيًّا أكثر منه جسديًّا... أيقظني أكثر من مرة هذيانها وهي نائمة، كانت تُهدِّد... تتوعَّد... تبكي... تتشنج... ثم تهدأ... كانت تبكي أحيانًا وأخرى تضحك... تعاملتُ مع الوضع بهدوء... وجرَّني التعب جرًّا إلى النوم العميق... لولا طائف طاف بخلدي ثم تسلَّل إلى روحي فأيقظني لحظة ورجعه يُدوِّي في أعماقي مقلقًا... ثم شق طريقه نحو مملكة الهواجس: «ماذا لو التقط لي أحد صورًا، أو سجَّل شريطًا لي في الملهى؟!»... من شدة السكر... صوت آخر عابثٌ مناصر للمجون والسهر... جريء ضد الهاجس يصده: «وليكن... فليذهبوا إلى الجحيم»!!

3

صحوتُ عند الظهيرة، بصعوبةٍ أغادر الفراش... يأسرني مشهد زينة وهي ممدَّدة وقد تبعثرت ملابسها، تتقلَّب في الفراش... ظننتُ أنها ستنهض، بَيدَ أنها عادت لتغطَّ في النوم... أشعر بإرهاقٍ شديدٍ وجسمي يؤلمني... يصلني ضجيج التلفاز من صالون الشقة... أجاهد نفسي أدلف خارجًا... أجد زبيدة مستلقيةً على الأريكة تتابع برنامجًا ما بالفرنسية... أحييها...

- صباح الخير زبيدة...

بكل ودٍّ وأدبٍ... تردُّ على تحيتي مبتسمةً في انشراح:

- صباح النور... هل نمتَ جيدًا؟

- نعم... شكرًا...!

بخفَّة ورشاقة، تنهض نحو المطبخ... تحضر الفطور، أمدُّ يدي فقط إلى فنجان القهوة، أشعل السيجارة توًّا، أُعزِّز بها صحوي، أسألها في تعبٍ ظاهرٍ وما زال التثاؤب يغلبني ويعصر جسدي تكاسلًا:

- أين منير؟!

- منير... خرج... أظنه في مقهى فرنسا...

أشعل سيجارةً ثانية... وأتخذ مكانًا في شُرفة تطلُّ على زقاق ضيِّق، أتكئُ على الحاجز الإسمنتي المشبك، أكنس الممرَّ بنظري، تيار ريح معتدلة محمَّلة بالرطوبة تلطف اليوم الأول من شتنبر معلنةً عن بداية زمن التقلُّبات... يُنعشني التيَّار، أشرع له وجهي... يخفُّ الصداع الذي يُلمُّ برأسي صبيحةَ لكل ليلة أُفرِّط فيها في الشُّرب... السماء صافية، إلا من سحابات خفيفة مبعثرة، كرُقَع بيضاء في ثوب أزرق... أسراب

النوارس، تحلّق بعيدًا في الأفق، في طريقها نحو المرفأ... حمامتان متلازمتان في التحليق كعاشقين ترفرفان قرب الشرفة، رفيف الأجنحة يزيد المشهد بهاءً... تحطّان على حافّة السقف القرميدي الأخضر لبيت قديم متهالك... تُحلّقان من جديد ثم تجثمان قرب بركة ماء صغيرة خلفتها قناة ماء ثرَّ ماؤها لتصدع فيها، فطفقت بحيرةُ ماء تتشكل، تحطُّ قربهما الطيور والحمائم لترتوي... عشرات الفتيات يَلِجن الممرَّ حيث يوجد معمل للملابس، يَمرُرن كظلالٍ باهتة في صمت غريب إلا من همس خافت، في بدلات موحَّدة اللون... بيضاء... يتفرَّقن على محلات بيع الوجبات السريعة... متفاديات المتشردين، الذين تبعث مظاهرهم البئيسة، وحالتهم الرثة، المزرية على الشفقة والرحمة وقد اختلطتا بالخوف والرهبة... بعضُ المتشردين الذين يقضون الليل على عتبات ومداخل العمارات الخَرِبة، وبين أنقاضها الباردة المخيفة... يُرتِّبون أسمالهم... ثم يتوزَّعون في الأزقة... يستجدون الطعام أمام المحلات... أحدهم يدسُّ ورق الكارتون الذي اتخذه فراشًا ولحافًا وراء سور متهالك لبيت مهجور، حيث تتراكم الأتربة والحجارة التي تتخلَّص منها العربات والشاحنات في جُنح الظلام... من وراء ركام حجارة وأتربة ومتلاشيات أطلال بيت قديم خَرِب، يمرق متشرِّد آخر... يغسل وجهه بقنينة ماء استخرجها من متاعه المكون من أغطية مغبرة وسخة، يفرك شعر رأسه بقوة، ويجلس مع الآخرين على عتبة العمارة، ثم ينهمك في شم كحول الصباغة من جوف كيس بلاستيكي.

أحد حراس السيارات... يبدو أنه من ذوي السوابق، ندب غائر واضح على وجهه، يُعلن شراستَه، وندوبٌ أخرى دقيقة كثيرة على ساعديه وقد امتزجت بوشوم غريبة، وبثور شوَّهت وجهه... تراكمت على جبينه وخدَّيْه، زادت من بشاعته... بقسوةٍ يتجه مهرولًا... غاضبًا... مُزبِدًا ومُرغِيًا... نحو المتشردين، ويركلهم واحدًا تلو الآخر ناهرًا في قسوة صارخًا في غضب انتفخت له أوداجه «سيروا بحالكم»!!

أحدهم كث اللحية في فوضى، أشعث، مغبر الشعر، ينتعل حذاءً قديمًا مختلف الفردتين، ينهض ثم يسقط، رغم أنه يبدو شابًّا في الثلاثينيات، تَخورُ قواه، ينهض من جديد، ويردُّ على الحارس: «دعني أترزق الله، أنت حسود...»! رد المتشرد يؤجِّج غضب الحارس، يلوح بعصاه متجهًا نحوه، يمنعه أحد المارة، يتراجع الحارس وهو يردد: «انظر إليه، رائحة الكحول تنبعث منه، إنه يُخيف العاملات... إنهم يتبوَّلون داخل العمارات ويزعجون الناس»!!

يستوقفني منظر زبيدة وقد خرجت للتبضع، في جلبابها الأزرق تعبر الطريق نحو الممر تتوقف برهة عند الحارس الليلي، استجابة لقسمه: «والله... لالة زبيدة، لن تدخلي للعمارة حتى تشربي هذه الكأس»! ترمي بالشاي في جوفها بسرعة، وتخطو نحو العمارة، مخلِّفة وراءها ذهولَ الحارس من طقطقة كعب حذائها العالي، عيناه تتابعان في شهوة خَطوها وتمايُل جسدها، يُشيِّعها بنظَرِه لهفة مفضوحة إلى أن تختفي داخل العمارة.

لا أدري كم قضيتُ من الوقت على الشرفة، حيث استلقيتُ على كرسيٍّ وغلبني النوم، لأستيقظ على صوت زبيدة:

- أستاذ... الغذاء جاهز...!

قبل أن أجلس للغذاء... أتصل بالمكتب، لأبلغ صابر عدم قدرتي على الحضور مدعيًا المرض، يرنُّ الهاتف طويلًا... يصلني صوته:

- وي، شكون؟!

- سلام... و«فيناك؟!»... «غبرتي آ صاحبي»... و«بزاف...» مالك... هل ألِفت «الصعلكة»؟!

- سلام... رجاء تكلَّف بملفاتي... أشعر بالعياء...!

- يتثاءب أدرك ذلك من تغيُّر إيقاع العبارات، أردف قائلًا:

- أوكي، لكن ماذا بك؟!

- زكام خفيف...!

- زكام... أم أفرطت في الشرب...؟!
- زكام وخمر... لا يهم... المهم أنني لا أستطيع المجيء...!
- «تهلاى ف راسك»... باي...

يقفل الخط... ما إن هممت للجلوس حول مائدة الغذاء حتى رن الهاتف من جديد:

- ألو شكون؟!
- أنا أمينة...
- أمينة...؟!
- أين أنت؟!

بُحَّ صوتُها فجأةً، وتقطَّعت أنفاسها، واختلط كلامها بالبكاء...

- اهدئي... تكلمي... ما بك؟!
- أمك مريضة جدًّا... لا أعرف ماذا أفعل... لقد غابت عن الوعي... احضر حالًا... حالًا...!

يخفق قلبي خفقان المذعور، وأشعر بدُوار كدتُ أسقط من أثره، أبحث عن الكلمات وقد جفَّ حلقي:

- «أش وقع لها»...؟! تكلمي... انطقي...

فقط رنين حرارة الهاتف، انقطع الاتصال دون أعرف، مما أربكني وتملَّكني الاضطراب الذي أضعف ركبتي، أشعل سيجارة خطأ من «فلترها»، وأسحب دخانًا سامًّا كاد يخنقني، أغرق في سعال محرج للأنفاس، أنطلق خارجًا كالمجنون، وزبيدة في أثري حتى غادرت العمارة، تردد:

- لا تخفْ... سيكون خيرًا إن شاء الله... اللطف يا رب!

لا أجد الزمن في عقلي وقلبي لأردَّ عليها... أرمي بنفسي في أول سيارة أجرة، ولا شيء غير صدى هواجسي يملأ تضاريس مُدني الداخلية.

4

لم يسبق لي أن عشت مشهد احتضارٍ لشخص ما، أو حضرت مشهد الرمق الأخير للإنسان... اللحظات الأخيرة له وهو يَجود بأنفاسه الأخيرة، الموت بالنسبة لي كان غامضًا... لغزًا مركَّبًا... أتفادى الخوض في تفاصيله وتحديد تجلياته... تُرعبني مشاهد الموت المتعدِّدة على القنوات... فأهرب منها إلى ما يُلهيني عن الأسئلة المرتبطة بلحظة الانتقال من عالم إلى عالم... أو التبدُّد في الفراغ... في ظلمة العدم... لم أشكَّ يومًا أننا هنا عابرون لا مُقيمون... لم أشك لحظة في كوننا ننتهي في حفرة عفنة وتنقطع صلتنا بوجود آخر مؤجل... فضلت دائمًا عدم التدقيق في الأسئلة الوجودية... أحيانًا كثيرة، المعرفة القلبية الإيمانية تحمل الأمل للقلوب المحطَّمة وللأرواح المقهورة...

ما العمل والتي تجود بأنفاسها الأخيرة... الآن وأمام عيني... أمي... حبيبتي... الشخص الوحيد الذي أنتمي إليه في هذا الوجود...؟! فحتى أبي لا أعرف أين هو... منذ رحل وأنا ملفوف في خِرَق الرضَّع... كأن الزمن توقف... والسواد تمدَّد من الصدر لتصطبغ به الجدران والظلال... ضوء شمس العصر ما زال دافئًا وقويًّا، غير أن عتمةً ما تسربَتْ من وجداني... كادت أن تُطفئ كلَّ بصيص نور، ورجفة برد سرت في فرائصي، أمي الآن ممدَّدة على سريرها، يكاد الهواء لا يصل إلى صدرها، خرخرة... حشرجة... غرغرة... كأن روحها عَلِقت في حلقومها، صدرها يعلو بقوة وينخفض، أشعر بنار تحرق أضلعي، أناديها:

- أمي... أمي...

لا ترد العزيزة... الغالية... إنها في المنطقة الفاصلة بين الحياة والموت، وهو هذا الزمن الأشقُّ على نفسي، رغبتُ لو انتقلَتْ إلى ربها انتقالًا يسيرًا... سريعًا... يجنبني هذا الاعتصار ويجنبها اعتصار الاحتضار... هذا السَّفُّود الملتهب الذي يخترق صدري، لم تُسعِفني الدموع، فظلَّت حبيسةَ المآقي... أشعر بها... متردِّدة... متوارية... في المدامع... متحجرة... لكنها تأبى أن تبرد حرقتي.

على السرير جلس الفقيه قُرب أمي، يتلو آياتٍ من القرآن، ويهمس في أذنها الشهادة، علَّ عقلها يلتقطها، فتُردِّدها في الخاطر إن ثَقُل اللسان، وقد كانت من قبلُ أخفَّ وأيسرَ على اللسان والجنان، ينقع قطعة قطن في ماء ويُبلل به فمَها، ثم يقطرها على شفتيها... آه... حتى القطرة صارت عصية على العبور نحو الصدر لتُخفف ضمَّة الموت... يناديها:

- لالة حبيبة... الشهادة... قولي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

عاجز أنا... عاجز عقليًّا ووجدانيًّا وبدنيًّا عن فعل أي شيء أمام سُنن الطبيعة، ونداء السماء للأرواح... حزينٌ إلى حد الانهيار بين الانتظار والرجاء المجهض... وسط إعصار مشاعري المضطربة... يغمرني القلق الجارف والتَّرح القاتل، وأنا أرى سبَّابة عاجزة عن الشهادة، وهي التي أحصت دون كلل وضجر آلاف التسبيحات... وفي هذه اللحظة الفاصلة ليس مطلوبًا من العقل سوى صمود ووعي لحظة، للاحتفال بالموت لا الخوف منه ببضع كلمات روحية تفصل الحق عن الباطل، تُمنِّي الروح بجنة عدن، وتجعل من ضمَّة الردَى أهون وأرحم، والشهادتان بهيَّتان على الشفتين... تُخفِّفان وطأة الوجل والسقوط في المجهول بضع كلمات تجعل العسير يسيرًا... اليوم فقط وعَيْتُ وفهمتُ دعاء الناس الذي كان يبدو عاديًّا: «اللهم ثبِّتنا على الشهادة» والحقيقة أن الثبات على لحظة الاحتضار معجزة لا يُنجزها غير قلب مؤمن مؤيَّد برحمة القهار الجبار.

أنظر في وجه أمي... أشعر بها... كأن أمي سمعت نداء الفقيه، وإن شَخُص البصر... كأن السمع آخر المودعين ضوضاء الحواس ومتعة الأشياء، تحاول النطق بالشهادة... رعشة على الشفتين، وسبَّابة مرفوعة لواء المؤمنة في رحلة العبور نحو السلام الروحي... هنا... في هذه اللحظة يعزُّ الإيمان، ويذلُّ النكران... هنا... في هذا العبور... مَن لا يحتاج إلا سكينة الطفرة الغاشية...؟!

وجه أمينة أراه متغيّرًا ممتقعًا... شاحبًا... اختلط لديها الخوف والحزن والندم، لا تكفُّ عن شَدِّ يدِ أمي، وتقبيل جبينها، والدعاء لها، أسمع حشرجةً في صدر أمي، ثم غرغرةً... فنفَسٌ أخير تجودُ معه بروحها... ويظل اللواء مرفوعًا... فيهدأ الجسد... ويستريح من السَّكَرات... تصرخ أمينة وهي تلطم خديها وصدرها:

- خالتي حبيبة... خالتي...!!

ينهرها الفقيه بقوة وقسوة:

- اصمتي يا امرأة... لا تُعذِّبيها بالنحيب واللطم... هذا حرام!!

إن لم تلطمي اليوم يا أمينة! فمتى يجوز النحيب والندب؟! إن لم أبكِ وأضعُف وأنهار الساعةَ، فمتى يحقُّ للرجال أن يبكوا ويضعُفوا؟! هذا الجسد الذي انتُزعت روحه نزعًا... لأمي... أمي... أمي... وربك يا فقيه! إن كان البكاء على الحبيبة حرامًا، فهو حلال اليومَ... فابكي يا أمينة... ابكيها... فلن يبكيها غيرنا... اندبي... مزِّقي تلابيبك... تمرَّغي في الأرض... لا يمكن للعزيزة الطاهرة أن ترحل وليس في أذنيها نحيب مكلوم أو صارخ مجروح...

يقتربُ الفقيه من أمي، يُغمِض عينيها، وينزع طاقم أسنانها، يُسوِّي فكَّيْها مُغلِقًا الفم، مستعينًا برباط من ثوب أبيض... ويقول في خشوع:

- رحمها الله... عظَّم الله أجركم... كل نفس ذائقة الموت... كن ابنًا صالحًا... ادعُ لها... هذا ما تبقَّى لها من الدنيا... دعاؤك بني... كن قويًّا... وتذكَّر قول الله سبحانه وتعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}.

وماذا بقي لي أنا في الدنيا...؟! تبدَّدت ذَخيرتي الروحيَّة، وتغلبني الدموع رغمًا عني... أجهش بالبكاء، فأتجنَّب الظهور بمظهر الضعف... رباه! ألا يليق الضعفُ بالرجال في مثل هذا الموقف؟! رباه!... إن كان البكاء والضعف مُباحَيْن للرجل، فهذا هو يوم الانهيار والنحيب... رغمًا عني اغرورقَتْ عيناي، ثم انهمرت العبرات رقراقةً تُبرِّد حُرقتي، أتجلَّد فأئدُ رغبةً قويةً في النشيج، فهذا موقف لم يسبق لي أن عِشتُه... أمينة تصرخ، ثم تلطم صدرها، وتنخرط في العويل، ينهرها الفقيه مرةً ثانية نهرًا شديدًا صائحًا في حزم: «اصمتي... لا تلطمي... ألم أقل لكِ إن ذاك يُعذبها؟!»... فتنزوي في غرفتها... باكيةً في حرقة بعيدة عن العيون ورقابة الفقيه الشرسة... أثار استغرابي... كيف تبكي أمينة أمي بكاءً حارقًا وهي التي أهملَتْها لسنين وهي حيَّة بيننا...؟! أهو ألم الحسرة والندم، أم حُرقة الفراق؟!

لم يتأخَّر صابر عندما أخبرتُه بمكالمة هاتفية، جاء رفقةَ لطيفة وأعضاء من النقابة، الذين تكفَّلوا بالجنازة والإجراءات الإدارية للدفن.

أمام بوابة العمارة نُصِبت خيمتان للعزاء، واحدة للنساء وأخرى للرجال، أوَّل المُعزِّين من قاطني العمارة كان سي المهدي، الذي خانته عيناه فاغرورقت، وكان لموت أمي أثر كبير عليه، حيث بدا لي مكسور الجناحين، منهارًا... أخذ مكانًا مع حفظة القرآن، يردد كواحدٍ منهم سورًا قرآنية بصوت جماعي، في جو مهيب، تقشعرُّ له الأبدان وتخشع له القلوب، وحدها أجواء الموت، تُلجم الرغبات وتُرهب كواسر الغابات الداخلية، استغربتُ لأُمِّ الصبي المتكبرة وآخرين يتركون شُقَقهم وكانوا ينفرون من السلام في الردهات، نزلوا لخيمتَيِ العزاء، وعزُّوني بحرارة وحرقة... غريب... أمر أهل هذه العمارة... لم يجمعنا لا فرح ولا سلام، وجمعنا موت أمي... وحضر الحاج سليمان ورفيقاه... عزاني قائلًا:

- اصبر... كلنا لها... هل أنت في حاجة إلى المال؟! لا تخجل... كلنا يهمنا الأمر...!

- «كاين كل الخير»... شكرًا... الله يرحم الوالدين...!

عجبًا! جاء الحاج سليمان مُعزّيًا لا كباقي المعزين، مَن كان دعمُهم كلامًا منحوتًا... محنطًا في دهاليز المجاملات... لو اكتفى بالكلام لكان أصدق وقعًا في قلبي... هم كذلك... تلك ثقافة الجبروت... كل الأقفال مفتاحها المال... حتى أقفال الصدروالقلوب...!!

يدلف نحو خيمة الرجال، يُفسح «لسي عبد العزيز» المجلس بين قُرَّاء القرآن، يشاركهم في القراءة الجماعية... وحين توقفوا، تصدى للموعظة، يعِظُ الناسَ وهم به مَشدوهون... مفتونون... لفصاحةٍ في لسانٍ... وخشوع في خطابٍ... وقوَّة في بيان... وسلاسةٍ في بلاغةٍ، حدَّ البكاء... في ثقة الخطيب المُفوَّه تحدَّث عن الموت، والآخرة... والعذاب... والحلال والحرام... والصبر...!!

رغم أن موت الحبيبة أمي شغلني، لم يُفوت عقلي المناسبة، ليَجُرني إلى جحيم الأسئلة... كيف لهذا الرجل العالم بالحرام والحلال... الذي يعِظُ الناس موعظةً تقشعرلها الأبدان... أن يجمع في حياته بين التناقضات...؟! هو السند والواجهة لـ«سي سليمان جبار»... يؤازره ظالمًا لا مظلومًا... يقاسمه العبث والغصب... من أين يستمدُّ كل هذه القدرة على التأقلم مع الظروف... والأهواء المختلفة...؟! كيف ينام؟!

قبل الغروب كانت أمي تحت الثَّرَى في مقبرة الغفران، لحظة خروج موكب الجنازة، حزَّ في قلبي أني أودعها وحيدًا بلا أبٍ ولا عمٍّ ولا خالةٍ، أحملها إلى مثواها الأخير، بين الأغراب... لمحتُ زينة رفقة منير أمام باب العمارة، تقدمَتْ نحوي، وقالت في صوت خافتٍ... حزين:

- شقَّ عليَّ أن أتركك وحدك في هذه المحنة... الله يرحمها...!
- شكرًا لحضورك...!

تمنيت لو كان بإمكاني أن أرتمي في حضنها وأبكي بلا رادع ولا خجل... نظرتُ في عينيها محطَّمًا مكسور الجناحين وقلت لها:

- سأكون في أمسِّ الحاجة إليكِ... صرتُ وحيدًا الآن...!

عانقني منير بحرارة، بصدقٍ جارفٍ وهو يبكي كطفلٍ صغيرٍ... رباه! ما أصدق بكاءه...؟! وما أروع روحه...؟! دمعُه حارق... نشيجُه يخرج من شغاف القلب فيعصر مآقيه بصدق وصفاء... حدسي تؤشر بوصلته على صدق مشاعر هذا الكائن المتحيّر... لم يخِبْ حدسي أبدًا حين يتعلق الأمر بالمشاعر، لم أعرف لِمَ كنتُ في حاجة إلى عناق صادق... دافئ من هذا النوع... عناق منير اليوم أعظم عزاء لروحي وقلبي...!!

انسحبا معًا وغيمة حزن تخيّم على نظراتهما... أشارَتْ لي زبيدة من نافذة السيارة إشارةَ الدعم والمساندة قبل أن ينطلق منير في جنون واضح، تنبّهت إلى صابر ولطيفة يتجاذبان أطراف الحديث وهما يتعقّبان بنظرات استياء السيارة...!

انفضَّ كلُّ مَن كان حولي... عادت أمينة إلى صمتها... أغلقت عليها غرفتَها، بعدما ودَّعت أمها التي حضرت مراسم العزاء والدفن، فطمَت نفسها عن التلفاز لقدسية اليوم، احترامًا لحدادي، أخذت مقعدًا لي على الشرفة، وجلستُ أجترُّ الذكريات وقلبي يتقطَّع عند كل محطة كانت فيها أمي شاهدةً... وحاضرةً، تحضرني صورتها وهي تجاهد نفسها من أجل إعداد الطعام لي، كنت أشعر بها تتنفَّس من خلال هذه المهام البسيطة، كانت أمي تركب قارب الوجود في يَمِّ بيتي المتلاطم الأمواج، فيكاد مرارًا أن تتكسَّر أضلاعه على شاطئ صخري اسمه لغط أمينة التي كشفت لي مؤخرًا عن تعمُّدها خلق الشنآن معها، لزرع الحقد في قلبي، واللجوء إلى تطليقها، كانت أمي تهيئ لي فطوري فتجدِّد علاقتَها بالحياة، تُرتِّب الوسائد والأغطية، فتنسج خيطًا رفيعًا يربطها بالأمل بضوء الوجود... بالزمن... بالفضاء... فالعطالة عتمةٌ... انتحارٌ صامت في دوامة الفراغ... كنت أشعر بها في كل حركة من حركاتها تبحث عن دورٍ لها وسط عالم جديد لم تألَفْ فيه أن تعيش على هامشه، تُكابد السُّكَّري، الذي يُرغمها على التبول كثيرًا، أحيانًا يغلبها التبول، فتتهاوَى مثانتها قبل الدخول لدورة المياه، وكم تظاهرْتُ أنني لا أعلم، ولم أرَ شيئًا،

فتغيِّر ملابسَها مرارًا، وتصرُّ على غسلها بنفسها، كنت أشعر بمرارتها، أشعر بذاك الكبرياء الذي ينهار على معاول جسد تختلُّ وظائفه، وتنشر الشيخوخة فوضىَ كبيرة على خرائطه، حينما كنتُ أراها تهرع إلى غرفتها مرتبكة كان ينفطر قلبي لحدِّ الغيبوبة، وأنا أنظر في عينيها الغارقتَيْن في الهلع والحزن العميق، فأعي أن جسدها خذلها مرة أخرى... وهي الآن تحت سياط الإحساس بالعار!!

أستحضر حادثةً، سقوطها في المطبخ، وهي تحاول فتح خزانة الأواني العالية... أتذكَّر خجلها من أصابعها المرتجفة التي لم تعُد قادرة على أداء بعض الأشغال المنزلية... خوفًا عليها من المواقد... وتجنُّبًا لإحراجها، بعدما لاحظت عجزها عن قدْحِ زند الولاعة لإشعال نار الفرن المنزلي، اشتريتُ إبريقًا كهربائيًّا، وغيرتُ معالم المطبخ، وترتيب الأواني، بحيث يكون كل شيء سهلَ التناول... قريبًا من يديها، حتى لا تبذل مجهودًا أكبر، رغم احتجاج أمينة، التي كانت لا تتوقف عن الترديد أنه على أمي أن تترك هذا الأمر لها وتكتفي بالصلاة والتسبيح، لم أكن أفهم سلوك أمينة وقسوتها حينذاك...! لم أكن أعرف من أين أتت بتلك الرؤية المأساوية في الوجود؟! ولا كيف حسمَتْ في حياة أمي، وحدَّدت ما يجب والمباح والمحظور، واعتبرت أن مشوارها في الحياة توقف... وأن عليها فقط أن تنتظر ساعة الرحيل... بالصلاة والعبادة...؟! بيد أنني الليلة لا ألومها على قسوتها، وأنا أتفهَّم عُمق جراحها... رغم أنها اختارت طريقةً ملتوية لتضع نهايةً لزواجنا... الذي بدا أنه لم يعُد له معنى... وعليَّ أن أباشر إجراءات الطلاق رحمةً بها واحترامًا لكرامتي...!

أجول أرجاء المطبخ، فتحضُرني صورة أمي وإلحاحها وعزيمتها رغم أصابعها المرتجفة وذاكرتها المختلَّة، إصرارها على القيام بأشياء قد تبدو دون معنى، لكنها كانت تحيا وتتنفس هواء الوجود من خلالها، كالأوامر التي تُمطِرني بها من حين لآخر، كنت أفهَّم عتاب أمي الذي يصل لدرجة النهر والقسوة، أمي فقط كانت تريد أن تظلَّ موجودةً... حية...!

يمنعني الموقف، والعرف من تناول كأس تمسح كآبتي، أمي الآن رحلَتْ... دون أن أتمكَّن من توديعها... أمي...! آه...! أمي رحلت وأخذت معها سَكِينة الروح، وتعويذتي ضد اليأس من رحمة الله وعنايته... مَن سيصالحني مع السماء بعد اليوم؟! من سيُحصِّن أيامي من الشرِّ بالدعاء بعد اليوم؟!

5

لم يطُل مقام أمينة في الشقة، انتظرَتْ ربما شفقةً بي أوربما حرجًا أو التزامًا بالأعراف أربعين ليلة، وبعد أربعينية أمي غادرت في صمت إلى بيت أهلها، فكان الطلاق رسميًّا بيننا بحرالخريف.

أما أنا فغادرتُ الشقة التي أصبحَتْ فارغة وموحشة، لا شيء بين أرجائها إلا ظلال قاتمة للذكريات الموجِعة، وبقيَّة أنفاس محزنة في الأثاث وثنايا الأغطية تهزُّ كياني هزًّا عنيفًا وتفطر القلب وهي تنعش في خاطري صورًا مؤلمة لأمي، تحت إلحاح زينة المستمرِّ التي خشيَتْ عليَّ من أثر الوحدة ومشقَّة العيش وعيشي بلا رفيق ولا مؤنس، فالتحقتُ بها بشقة شارع 11 يناير، فغدَتْ شقَّتُها عنواني ومقامي الجديدَيْن ودَّعت أنفاس الراحلة العزيزة، مرتويًا بطيفها الذي ما انفكَّ يرعاني، وآنَسُ به في غُربتي ووحدتي... مذعنًا لإلحاح الكل بما فيهم منيرالذي عاد إلى شقته بشارع ابن تاشفين، وزبيدة التي صارَتْ تتردَّد علينا من حين لآخر، إذ كانت تقضي معظم الأيام مع «شارل» في مسكن صيفي في المنطقة الساحلية ببسكورة.

ذات ليلة من شهرأكتوبر، اتصلَتْ بي أم أمينة، مستعطفةً أن أحضر إلى بيتها حالًا، مؤكدة أن أمينة تم القبض عليها. التحقنا معًا بمركز الدرك، فصُدمت حينما اطَّلعت وقرأتُ مضامين المحضر، الذي أفاد فيه حراس مقبرة الرحمة أنهم ضبطوا امرأة تنبش قبرًا في جنح الظلام، ورجَّح المحققون وقد اعتادوا مثل هذه القضايا أن تكون العملية متعلقة بالسحر والشعوذة، طلبْتُ رؤيتَها فاستُجيب لي...

صدمني وهالني منظرها المُزري والمُبكي... فقد تغيَّرت كثيرًا المرأة الذي تزوَّجتها... تغيَّرت إلى درجة أن معالم وجهها ذبُلت وشاخت ملامحها في بضعة شهور... اختفت الإشراقة والحياة في العينين... وجيوب عميقة وهالات سوداء كأنها علَّة تقتات من اللحم والجلد والضوء، صارت مظلمةَ النظرةِ، يابسةَ الشفتين، كأنها تقدَّمت في السِّنِّ سريعًا... تعَبٌ ظاهر وإنهاكٌ جليٌّ في هزال كأنها لم تَذُق الطعام منذ شهور، ولم تغفُ عيناها... تخط بأصبعها على الجدار ما لا يُرى ولا يقرؤه غيرها، ثم تنخرط في نوبة ضحك وبكاء وصراخ... حافيةَ القدمين، تُلوِّح للحارس الذي يسهر على سلامتها خوفًا من أن تضُرَّ نفسَها... وتقول:

- سأحرقه... والله سأحرقه... ولو أخذتموه إلى الجحيم... سألحق به... وهناك... سأحرقه...!

تجلس... وتعود إلى الحديث إلى نفسها بكلام غير واضح، ترتب ملابسها المبعثرة في اضطراب نفسي لا غبار عليه، وتنفضُ عن شعرها التراب في محاولةٍ يائسةٍ لتسويته وقد طاله طين لزج، وتنخرط بين اللحظة والأخرى في بكاء يختلط بالضحك وتنتقل من حديث إلى آخر... مع كائناتٍ لا تراه إلا هي... كنتُ أمامها أحدثها فلا تسمعني، بينما تحاور شخصي في خيالها وفي العالم الذي شطَّ عقلُها إليه، دنوتُ منها وفي حنوٍّ والحزن هدَّني والرحمة تعصر مدامعي ألمًا وحسرةً وصدري فيه غضب من الزمن والأيام والأقدار... قلتُ:

- أمينة... أرجوك... انظري إليَّ... كلميني... أنا عزيز... أعرف أنكِ ظُلمتِ كفاية... لكن... لا عليك... سينتقم لك الله... ومن يدري؟! ربما هو الآن في عذاب عند المنتقم الجبار... فاهدئي...!!

لم تُعِرني أدنَى انتباه أو اهتمام، بدوتُ خارجَ مجال التقاط بصرها وعقلها... ظهرَتْ لي أنها في عالم آخر غير عالمنا، لقد تجاوزت خط التماس بين العقل والجنون... أُلِحُّ عليها... مشفقًا... باكيًا... مربِّتًا على ظهرها:

- أمينة... أنا عزيز... انظري إليَّ...!!

كأن بصرها بغتةً التقطني... تسرَّب إلى قلبي بصيص أمل في أن تُحدثني، لكن كان رجاءً خائبًا ومطلبًا مجهضًا، إذ صرخت في وجهي :

- كلكم كلاب... كلاب... عفن... أنذال...!

تغدو فجأة هادئة في شرود، متخشِّبة... عيناها جاحظتان مركِّزة النظرات على وجهي في غياب شبه تامٍّ عما يحيط بها، يكاد لا يرفل لها رمش، ثم ترتعش شفتاها، وينتفض جسدها كأن قلبها أُنعِش بصعقة كهربائية قوية، تتقلَّص عضلات وجهها، وتميل برأسها في حركات رتيبة وهي تردد: «لا... يا خالي... أرجوك... ليس هذه الليلة... اتركني»!! ثم تتكوَّم في الزاوية وتغطي وجهها بيديها كأن أمرًا رهيبًا أفزعها...! تهدأ... تضحك... تبكي... تدنو حَبوًا مني في حيطة بخُطًى حَذِرة كأنها متربِّصة بي تُحملِق في كأنها تستطلع وجهًا يُذكِّرها بشيء، حتى حسبتها في لحظة صفاء فارقة، ثم تقول في نبرة صوت تتلوَّن بين الفظَّة والرقَّة وقد اختلط فيها الضحك والبكاء:

- أريد أن أحرقه... خالي... الكلب... المجرم... أريد حرقه... أين هو؟! أين هو؟! خذوني إليه...!!

تصرخ في وجهي... تنتصب واقفةً في صلابة وعنف، تنقض على عنقي بسرعة غريبة، تطوقه بيديها بقوة لا أعرف من أين ولا كيف تأتَّتْ لهذا الجسد الهزيل الواهن...؟!! أشعر بالاختناق وأعجز عن ردعها، يهرع نحوي الحارس يساعدني في تخليص رقبتي من يديها. ثم يُقيِّدها بالأصداف إلى سرير حديدي وهو يقول متلعثمًا... مشفقًا من حالها:

- عذرًا... عذرًا... أستاذ... أكره تصفيد امرأة... وخصوصًا إن كانت مريضة... لكنها صارت خطِرةً على نفسها وعلى الغير... لا خيارَ لديَّ... العفو من عند الله...!

لا أجد ردًّا أواجه به قرار الحارس الذي بدا لي متأثرًا بالموقف... أنصرف أجرُّ ذيول الخيبة والحسرة في حزن شديد... أتوقَّف لحظةً لالتقاط أنفاسي في ردهة المركز... أستند إلى الجدار، وأُطرق الجبين ويداي تُخفيان

وجهي، يغلبني الألم فتجيش عيناي دمعًا حارقًا حزنًا وكمدًا بكاءً ونجيشًا، يفيض قلبي حتى تتقطع أنفاسي ويضيق نفسي على امرأة كانت سيدة العقل والصحو...!!

أدلف منكسرًا في خُطى المهزوم مكتب الضابط المسؤول وقد كان شابًّا في مقتبل العمر، لبيب الحديث طيب اللسان، مرح الروح. يُصغي لمرافعتي خارج الأعراف القانونية في اهتمام وأسًى... وأنا أقول ومن حين لآخر أمسح دمعي وأتوقف لسقي صدري بمزيد من الهواء لتطريف حنجرة بُحَّت فكَحَّت:

- سيدي... أطمع في سعة صدرك... وأن تنسى أنني محامٍ... أخاطب فيكَ الآن... الأخ الأمغر... والابن... هذه السيدة التي ضاعت في جنونٍ بادٍ لا غبار عليه، كانت زوجتي، وطلقتُها نزولًا عند رغبتها الطلاق... أتعرف ما السبب...؟! ذاك القبر الذي كانت تحاول نَبشه هو لخالها السيِّء الذكر الذي مات في حادثة سير... لقد اغتصبها وهي صغيرة، ودأب على فعلته الشنعاء لسنوات... كان يُرغمها على ابتلاع أقراص منع الحمل وممارسة الجنس... لم تؤثر فيه توسلاتها وبكاؤها... بل كلّما كَبِرت... زاد شَبَقه... لم يرحمها طفلة صغيرة... ولا مراهقة يافعة... كانت تكتم الأمر على العائلة... فقد كان مجرمًا طاغيًا... خريج سجون... يتوعَّدها ويُهددها بقتل الكل إن هي فضحت أمره... في غرفة على السطوح في بيت عائلة أمها حيث استقر والداها، استمر في اغتيال البراءة، وتدنيس الطفولة، ثم جعل منها عاهرة له ليلًا وهو يعود مترنحًا تحت تأثير أقراص الهلوسة... لقد سبق له أن قضى عشر سنوات في جريمة قتل لنديمٍ له... لم تكن له من لغة غير السكين... و«الماء القاطع»... إنها تشعر بيده العفنة في كل بقعة من جسدها... إنها تشم رائحته في كل رجل... إنها تراه عند كل لمسة... سيدي... إنها عاجزة عن الحياة حياة جنسية طبيعية... تخاف من الرجال... وتخاف من أي علاقة جنسية... أرجوك أن تتفهَّم أمرها... أن ترحمها... ها هي النتيجة... جنون جارف... وجحيم حارق...!!

أطرق الضابط بجبينه، وطفق يفرُك ذقنه متأمِّلًا... يُفكِّر بعمق وبرويَّة، ثم استقام واقفًا... وتقدَّم نحوي... ربَّت على كتفي... لامست في عينيه مسحة حزن، أصدر زفيرًا وهو يقول:

- لن أكون أقل إنسانيةً منك... هي في حاجة إلى العلاج... سأفعل سابقة في حياتي... رجاء خذها معك... ولينظر الله إليها بعين الرحمة...!

لم يكن هناك شك أنها أصيبت بلوثة في عقلها وجنونُها شديد، هذا ما أكده الطبيب الذي أقرَّ في شهادته أنها غير مسؤولة عن أفعالها، وأنها في حاجة إلى الخضوع للعلاج، لأن لها ميولًا انتحارية.

قابلتُ حُراس المقبرة، فأكدوا جميعًا في أسًى وحسرة أنهم شاهدوها تنبش القبر بأظافرها... وبقطعة خشب... بيدَ أنهم ما إن سمعوا حكايتها، حتى رَقَّت قلوبُهم، ورأيت الدموع في عيني رئيسهم الذي استدرك مغيِّرًا روايته، هو ينظر إلى رفاقه في حزم وهم يؤيدون كلامه بهزِّ رؤوسهم، ربما شفقةً وقال: «في الحقيقة... كان الظلام شديدًا... سمعنا فقط صوتَها وهي تتوعَّد... المسكينة»! وأنا أهم بمغادرة المقبرة... التقطت أذناي كلام أحدهم: «ذاك المجرم خالها كان يستحق الحرق حيًّا»!!

حينما علِمَت زينة بالخبر، وقد كتمتُ عنها سبب طلاق أمينة... رقَّ قلبها، وجاشت عيناها تأثرًا، كأن الحدث المأساوي آلمها ونكَأَ جراحها التي لا تندمل أبدًا وقالت لي:

- هيِّئ نفسك... حبيبي عزيز... لقد وضعتُ خطة لعمِّي سليمان...

- ألن تنسي... الموضوع أبدًا...؟! اقلبي الصفحة... وابدئي حياة جديدة...!

- يا ريت... عزيز... يا حبيبي... الأمر أقوى مني... هو الدافع نفسه الذي دفع أمينة لنبش قبر الجبان... وتحاول حرق جثته... لن تطيب نفسي وتقرَّ عيني حتى أراه يتعذَّب كما عذَّبني... ويموت حيًّا كما مات أبي كمدًا وأمي حزنًا، سأدمِّره كما دمَّر حياتي وخرَّب حياة الناس فمسخ قريتي... تلك القرية الساحرة التي حوَّلها إلى أطلال خربة... وماخور كبير...!!

- سأخرج لأُنفِّس عن نفسي... سأذهب لحانة الطاحونة الحمراء...

- إن عدتَ باكرًا... لا تنتظرني... سأكون في الملهى... ربما يأتي معي منير أو زبيدة...

- لا بأس...

أُقبِّلها... أضع سترتي دون أن أعقد ربطة العنق... أهمُّ بالخروج... تستوقفني، تسوي ربطة عنقي وترشُّني بعطر عبق وترسم قبلة على شفتي... أتذكر أمي أيام الجامعة... وأتذكَّر أيامي الأولى مع أمينة...

ألم عابر ألمَّ بي على مستوى ظهري، فقررتُ ألا أجلس على المقاعد العالية قُبالة المشرب، اتخذتُ طاولة في عمق الحانة وانتظرت، أن يضع لي النادل كعادته قنينة جعة... طال انتظاري، صفَّقت بيدي فجاء شاب مسرعًا وقال في أدب:

- مساء الخير... سيدي... نعم...؟!

- أين الساقي العجوز الذي كان يعمل على المشرب؟!

- آه...! سي عبد الفتاح... مات... رحمه الله...

- وأين نادية؟!

يجول بنظره المكان كأنه يبحث عن شيء:

- يا لخفتها!... لقد كانت هنا... منذ لحظة... ربما دخلت دورة المياه...

وضع النادل وقد كان شابًّا يافعًا ممتلئًا بالحيوية والنشاط جعة على الطاولة، وصحن زيتون، وآخر فيه قطع الفجل، وهمس في أذني:

- مرحبًا... أن هنا لخدمتك...!

- قل لي... كيف مات العجوز؟!

- كان منهمكًا في الشغل نهاية الأسبوع الماضي، فسقط مغشيًّا عليه، ظنَّ الجميع في البداية أن الأمر لا يعدو كونه «دوخة» أو أزمة سُكر... لكن حينما أتت سيارة الإسعاف رفضَتْ نقله... فقد فارق الحياة... فنُقل إلى مصلحة الطب الشرعي بسيارة نقل الأموات... قالوا إنه مات جراء أزمة قلبية مفاجئة...

انصرف في خفة لتلبية نداء زبون، وفي طريقه صادف نادية، همس في أذنها... التفتَتْ نحوي، ابتسمَتْ وخطَتْ نحو الطاولة في تهتُّك وقد هيَّجت الصدور بزيها الشفاف، ونحرها المكشوف، وقد تطلع في شهوة وإثارة نهديها، يضاعف قوة سلاح هذا الجسد القاتل للحكمة، طقطقة الكعبين الحاملين لجسد يرقص مشيًا رقصة يؤلف موسيقاها الغواية والكأس، دنت بوجهها من وجهي، وانحنت متكئة على الطاولة بمرفقيها وقالت في فجور ونظرات زائغة:

- منذ أخذتك منا تلك الجميلة... «سمحت فينا...» اشتقنا إليك يا رجل... أين ضل مركبك وتاه؟! هل غيَّرت المركب أم المرسى؟! قل يا لئيم...!

- لا... أبدًا... فقط مشاغل الدنيا...!

يرتفع ضوضاء وراء المشرب، ترتبك نادية وتعود إلى المشرب، يظهر الحاج بوشعيب مالك الحانة ذو الجبهة العريضة، والجمجمة الكبيرة الفائضة جوانبها، يقرع بشدة وسفاهة مُسيِّر الحانة «ولد الراضي» سبًّا وشتمًا بذيئَيْن وهو ينفث في غطرسةٍ في وجهه دخان سيجاره الكوبي، وولد الراضي يواجه الموقف المُخزي وهذا السادي بطأطأة الرأس في ذُلٍّ وانكسار هامةٍ، حتى إذا ما تجرَّأ المسكين وحاول الإجابة على أسئلته الهاطلة بلا رحمة في استحياءٍ وخوفٍ، صدَّها صدًّا عنيفًا الحاج بوشعيب بجَرِّهِ من تلابيب قميصه ونهره وخضه... مشهد يتكرَّر كثيرًا في هذه الحانة التي يجد صاحبها متعة غريبة في تأنيب وتأديب الندل والسقاة والساقيات بالشتم الفاحش البذيء، والركل أحيانًا، وقد يتمادى فيلطم هذا ويصفع تلك... ضحاياه كانوا فقط يصمتون وتبكي النساء منهن في المراحيض بحرقة أمام أنظار الضاوية منظفة دورة المياه القبيحة الوجه والطبع والخلق، فلا تقاسمهن الألم بالعزاء والمواساة، بل تبرع في الشماتة، وتُبدع في تبرير غضب صاحب الجبهة العريضة، ملتمسةً له الأعذار تلو الأعذار في أخطاء وهفوات تصطنعها للآخرين، وضحايا صاحب السيجار الكوبي، لا يردُّون ولا يحتجُّون... ولا يدافعون أمام شماتة المرأة القبيحة... فهم يعلمون

أنها عينه وأذنه وقوَّادته التي تنتقي له من الفتيات اللواتي يرتدن الحانة أجملهن وأكثرهن طراوة والأصغر... وخصوصا الجديدات منهن في عالم الدعارة، وكانت تأشيرة المرور للعمل في حانة تمنح على سريره الفاحش، أما اللواتي يعافهن فهن مطالبات بدفع الزبون للاستهلاك كثيرًا حتى يثمل باحتساء أغلى الخمور، وقد يألف الزبون الحضن فيألف الحانة، وهذا نصر للمومس يقربها أكثر من صاحب الشأن والقرار، لهذا تعددت العلاقات الطويلة والحميمية هنا، وأبرعهنَّ في اصطياد الزبناء ودفعهم إلى الإفلاس نادية جميلة الجميلات، أما أنا فكلهن يعرفنني، ملقحا كفاية ضد غوايتهن وأدرك الأخطار المحدقة لدوامة اتخاذ خليلة من الحانة...

يهدأ الوضع بانصراف الحاج بوشعيب، وقد تسابق بعض الزبناء لتحيته والسلام عليه في ابتسامات مزيفة وانحناءات خفيفة، وباختفائه عن الأعين في هرولة تسبقه كرشه تتغير المواقف والأحلاف، فيواسي بعض السكارى «ولد الراضي» مستنكرين فظاظة وقسوة الحاج بوشعيب، حتى إذا ما ألح عليهم البول تغير اللسان والمنطق والقضية فيتغير له الحلف، فيلعنون المسير الذي صار في حلفهم المؤقت غير أمين على مال الرجل وهم شهود على ذلك وينتقدون تهاون وتقاعس بعض الندل والساقيات الذين غدوا في منطقهم الجديد جلادين ولصوصًا، فيتفهَّمون ويفهموا غضب الرجل الذي يغدو على مسمع من الضاوية طيبًا يخاف الله... وأمثاله قليلون...

أستحضر برودة دم الساقي عبد الفتاح... العجوز... وهدوءه الغريب أمام عاصفة صاحب الجبهة العريضة، كأن الذلَّ صار جزءًا من خلاياه، والمهانة غدت عنصرًا في دمه. أذكُر يوم قبل قدم سيده، وقد منعه من العمل بعدما بلغ الستين عامًا وصار ثقيلًا... منتهي الصلاحية بعدما أفنى زهرة عمره هنا... هنا، أستحضر ذاك اليوم في حسرة، حين بكَى وانتحب وهو يقول: «لن تأخذوني من هذا المكان إلا محمَّلًا على نعش... لن يفرقنا إلا الموت... «فاستجاب الموت لنداء العجوز وجاءه في غفلة منه وهو لاهٍ...!!

عادت نادية إلى رفقتي، وهي تتأفف وتأسف دون موقف محدَّد... لم أر «عز الدين» خليلَ «نادية»، كدت أسألها، لكن فجأة ظهر لي يلج الحانة وليس على ديدنه... منكسر الجناحين... منهارًا... متثاقل الخطو... مبعثر الثياب، كأن همًّا كبيرًا أنهك كاهله، حارس الحانة لم يقف له عندما رآه كالمعتاد واكتفى بالنظر إليه نظرة اشمئزاز قاسية أثارت استغرابي!!

ظننتُ أن نادية ستغادر طاولتي فور وصوله، فهو الحبيب والعاشق ورجلها الذي لا تنازعها فيه أخرى، بيدَ أنها ظلَّت على حالها، وجلس هو على طاولة وحيدًا، لم يُسرع إليه النادل، حتى صاح في غيظٍ واضح:

- ألن نشرب الليلة؟! أينك أيها... ابن العاهرة؟!

استجابة النادل كانت ثقيلة... متلكِّئة... فيها شيء من التجاهل المريب والاستفزاز الظاهر ما يوتر أعصاب أي زبون... رد عليه وهو يضع له قنينة نبيذ رخيص: «خذ يا ابن العاهرة... لا ينطق بذلك إلا عاهر من عهر خرج» لم يُعِر حميد حارس الحانة الأمر أي اهتمام فقط فاه ببضع كلمات: «يا لطيف... عاد من جديد...»! أثار الأمر حفيظتي، فحتى صحنا الفجل والزيتون حُرِم منهما... وطفق يملأ الكأس تلو الكأس، ويشعل سجائر رخيصة وهو يحدج نادية بنظرات وقاسية... غاضبة... غريبة حتى خشيت على نفسي من غيرته... وأثار انتباهي حذاؤه الملطَّخ بالوحل، وشعره غير المصفَّف... المغبر... وملابسه المجعَّدة غير المكوية منذ أيام. طلبت جعة لنادية، واسترقت النظر إلى عز الدين بشكل متقطع حتى لا أثير حفيظته، فبدا لي منقبض الأسارير في حنق وهو يرمق نادية بنظرات قاسية، وقد جاش صدره غضبا حتمًا، فهي لم تُعِره انتباهًا وتجاهلَتْه تجاهل البعير الأجرب، همست في أذن نادية:

- ماذا وقع؟! أهذا هو عز الدين...؟! ما باله في هذه الحالة الرثة؟!

تقول بعدما غيرت وضع جلوسها، وصار ظهرها في مواجهة طاولته في سخرية:

- نعم... هو... دارت به الأيام... غرقت السفينة...!

قلت لها في حيرة:

- كيف وهو الذي كان كمن يغرف المال من بئر لا تجفُّ؟!

- الغبي... لم يُحسن التصرف... كان له محل لبيع الأواني الفضية في سوق درب عمر... يبيع بالجملة، تورط في شيكات بدون رصيد، وتراكمت عليه الديون، فتم بيع المحل في مزاد علني عقب دعوة قضائية من لدن الدائنين لأداء الديون، وتغطية الحسابات الفارغة يُروِّجون عني ظلمًا أنه اشترى لي شقة... وملأ حسابي برصيد كبير من المال، وحصلت منه على حلي كثيرة من الذهب... وحين أفلَسَ... تخلَّصت منه... هذا كذب وافتراء... فقط لا أريده أن يكون عالةً عليَّ... أمضى شهرًا في السجن... يأتي إلى هنا... ويطلب الخمر من الزبناء... الحاج... لم يعد يرغب فيه... وفاتورة ديونه هنا أصبحت طويلة وثقيلة.

أردد في نفسي في حسرةً: «فعلًا... يا نادية...! غرقت السفينة... ومَن أغرقها غيرك؟!» وتحضرني صورة ذاك الجمركي، الذي أفلَسَتْه وتخلَّت عنه... فوجدوه ذات فجر معلقًا بحبل في غابة على الطريق...

بدَّدت الكأس تردُّد عز الدين وحلَّت عُقدة لسانه... فصاح بنظراتٍ زائغة موجها الكلام إليَّ:

- أستاذ... احترس من العاهرات... «رد بالك...» يأكلونك لحمًا ويرمونك عظمًا... لا ثقة فيهن... لا دينَ لهن ولا مِلَّة... إنهن غِربان تنهش اللحم... إنهن «مسخوطات» لا أمان لهن... الله يلعن... أمهن...!!

لم أشأ الردَّ عليه ولا التجاوب معه، كلمتُ النادل أن يسأله عما يريد شُربه، فوضع له قنينة نبيذ أخرى، فلوح لي عز الدين بيده قائلا في تثاقل:

- العز للرجال... حواء لا خير فيها... و«ماشي» كل الرجال رجال... ما أكثر المنافقين... يلعقون مؤخرتك من أجل المال...

كان بالطبع يلمز بكلماته نادية التي تجاهلته، وتفادت الردَّ عليه فنهضت في حنق مهرولة وهي تتأفف في ضجر مكتفيةً بحدجِه بنظرات غاضبة، ثم قصدت المشرب تطقطق كعبي حذائها وتهزُّ ردفيها، وهو يقول مستهزئًا:

- لا يهم... دخلنا «الجردة» وعرفنا ما فيها... ماذا بقي غير العفن...

فجأة... يرفع عقيرته ببكاء ثم تختلط دموعه بضحكة هستيرية، تشير نادية بعينيها إلى الحارس يتقدم نحوه غاضبًا يُسكِته وهو يهزُّه هزًّا قويًّا من تلابيبه... يهينه... ينهره... مهددًا إياه بالطرد... ثم ينصرف وهو يدمدم:

- المرة القادة والله لن أدعه يدخل...!

ينهض نحو دورة المياه تظل الضاوية في مكانها، تضع منديلًا على أنفها، كأنها تتجنب نتانة ما... يخرج... ترمقه بنظرة احتقار... وبالأمس كان المُرحَّب به ترحيبَ الأبطال... ألم تكن ترشُّ طريقه ببخاخ عطر التفاح، وتفتح له دورة ماء خاصَّة... وله عندها علبة مناديل خاصَّة؟! يسوي كرشه داخل سرواله وهو يردد: «لي ما عندو فلوس كلامو مسوس»... «القوادة تبقى غير قوادة...»!

الحياة غريبة حقًّا، ها هو عز الدين الآمر والناهي في الحانة بالأمس القريب، صار كالبعير الأجرب... الكل يتجنَّبه، بدءًا من خليلته نادية التي ما إن أفلَسَتْه حتى أعلنت إفلاس العلاقة معه، فلم يكن يربطها به إلا ماله، وكرمه الحاتمي، وقد كان بينهما عشق ولا عشق روميو وجولييت... وحتى الضاوية التي تسبق دخوله برشٍّ بخاخ معطر طيب الرائحة، صارت تضع المحرمة الورقية على أنفها إن مرَّ بجانبها، ولم تعُد تفتح له المرحاض الخاص بذوي المال والجاه، والمثير أن حارس الحانة مستعدٌّ توًّا لرميه للخارج وهو الذي كان يستقبله استقبال الأمراء، مبتسمًا منحنيًا، عارضًا خدماته، طاردًا كل من يزعجه، لم تعُدْ نُكَته تُضحك أحدًا، وهم الذين ضجُّوا ضجَّة بالأمس لنُكَته التافهة والسخيفة... قد كانت نكتة منه -ولو سخيفة- يستجيب لها أكثر رواد الحانة ضحكًا عاليًا... وثناءً على الرجل... الذي لم تعُد تُقرع الأنخاب باسمه، وهو الذي كان يُعَد من أحسن الزبناء وأنبلهم، كانوا يكيلون له المديح وهو يكرمهم بالكؤوس والوجبات، ويجود على الجميع دون حساب... ما باله اليوم فقَدَ ثروتَه ففقد أصدقاءه وخليلتَه واحترامَه...؟! للأسف ما يُشترى بالمال... يضيع مع الزمان.

كثُر لغطُه... وهذيانه من همٍّ جارفٍ هدَّام للنفوس رَكِبَه حتى أنقَضَ ظهره، لا بد أن الندم والحسرة يأكلان قلبه الآن ويقتاتان في نهمٍ من جلده، ويحطبان لنارهما من أحراج خيبته... الكأس حتمًا ستنبش في القديم وتربطه بالحاضر المُرِّ... ستُخرجه قاسيًا... أليمًا... يرشح بالأنين والآهات... سيكبر غضبه مع كل كأس يرمي بها في جوفه التي غدت حطبًا لنار غضبه وحقده، في عينيه انطفأ بريق الأمل وحلَّت محلَّه شرارة حمراء تؤشر على ضغينة متمرِّدة وأحقادٍ تتسع في الصدر وتُشعل لهبها في البصر، كل كأس تزيده حنقًا وتوترًا... خاصَمَ وعاتب... وجَّه لكمات لكائنات لا يراها غيرُه في لحظة طيش عقلي... كلم الفراغ حاسب وحاكم... سبَّ وشتم... هدَّد وتوعد... لكن... الغضب لم يكتفِ بالتنفيس الداخلي، فنظر جهةَ نادية... وأشار إليها بإصبعه... واقفًا... مترنحًا... أسقط قنينة النبيذ... فتذمَّرت الضاوية وتأفَّفت في ضجر، ولوت شفتيها في شماتة وسخرية، وقسَتِ الليلةَ على الرجل الذي طالما زَفَّتْه إلى المرحاض الخاص بعِلِيَة السكارى زفة العريس بالابتسامة، والعطر والتهليل... رفع صوته بالصياح: «يا عاهرة... يا نادية... اسمعوا اسمها الحقيقي... السعدية... وهي «عروبية»... تربت بين الروث والبعر... وكانت تتغوَّط في الخلاء بين شجر الصبار تمسح مؤخرتها بالحجارة... «خانزة»... شبعت اليوم بعد جوع... كم صرفتُ عليكِ... وعلى قوَّادتِك الضاوية...؟! وأنت يا «فيدور»... يا حميد اللعين...!. كم جئتَ إليَّ متوسِّلًا في الأعياد...؟! أنسيتَ أنني كنت أرسلك لتُحضره؟! كنت مستعدًّا لعرض زوجتك... أمك... يا ابن الكلبة... والليلة تريد أن تظهر بمظهر الرجولة... وما أنت غير قواد»!!

شرارة الغضب الشديد تلمع في عيني حميد... مع كل كلمة كان عز الدين يُطلقها كانت لغمًا ينفجر فيطال كبرياءه وكبرياء نادية التي كادت أن تندب خدَّيها... فامتدت يده بلكمة قوية إلى وجهه، فسقط مغشيًّا عليه... ولم يكتفِ بما فعل... بل ركله في بطنه ركلًا وصبَّ جامَّ غضبه

حتى نفَّسَ غيظَه وتنفَّست معه نادية... ولولا أن ولد الراضي الذي أمر بوقف السحل... بنظرةٍ منه... وبغمزة عين فهم حميد المطلوب منه، فأخرجه محمولًا على الأكتاف يُعينه على ذلك الشاب النادل الجديد، الذي بدا متذمرًا مستاءً... كأنه لم يكن راضيًا عما يقع... ففي نظرته شيء من الشفقة تفضحه، وعضه لشفته السفلى دليل أنه غير راضٍ على فِعلة الحارس... بل على مصير عز الدين... ولكن العين بصيرة واليد قصيرة... وحتى يتمكَّن الحارس من إخفاء الجريمة، وإنكار أنه كان في الحانة... تم رميه على الرصيف... وعاد السكون إلى الحانة... وعرجت نادية على قنينة ويسكي، تتجرَّع كؤوسًا متتالية بلا ماء ولا ثلج وقد شردت نظراتها وبطل غنجها وتعطَّل تهتكها وتلاشى انشراح الوجه، وضوضاء الجسد.

لُذتُ بصمتي كالعادة... وقد سُجِلتُ مع عز الدين مرتين دون ضرب ولا ركل حين كنت متفرِّجًا سلبيًّا، وحين جاريت توجُّسي وقلتُ: «الأمر لا يهمني» فلم تكن لي الجرأة لأعبِّر عن رفضي لهذا العنف الغادر ولا الشجاعة الكافية على الأقل للاستنكار، وعقلي يحذرني من التهوُّر... مردِّدًا في الأعماق: «لكل معركة أتباع... وأنت هنا لا أتباع لك... ومن لا أتباع له تصير الحقيقة بين يديه باطلًا... فلا تكن شهيدًا في قضية باطلة... خاسرة منذ البداية...! فليتحمل مسؤولية ما وقع، فهو الذي تسبَّب لنفسه في كل شيء... كان يعيش على الوهم فانتهى قربانًا على مذبح الغدر والخذلان».

تغيَّرت معالم هذا العالم، فصار بلا خرائط واضحة... وجُنَّت بوصلة الإنسانية... نادية، لأول مرة تطلب مني أن أرسل إليها جعة، أمتثل وهي تعلم أنني لستُ من النوع الذي يتخذ نديمةً في البار، لأني أعرف مِن المآسي ما يكفي عن رجال خَرِبت بيوتهم، طُردوا من أعمالهم، وصاروا متشردين بسبب مومسات الحانات... اللواتي لا عاشق لهنَّ غير القادر على الدفع أكثر... المومس برميل بنزين والخمر عُود كبريت... من يجمعهما يشعل حرائق في حياته... لا تنطفئ إلا وهو على عتبة الخراب والتيه.

لم يُفاجئني السقوط المدوِّي لعز الدين، فالنتيجة كانت منتظرةً، لأنه صنع عالمـًا من خِرَق الوهم... صنع حظوةً مزيفةً بالمال ورشوة الضمائر وشراء الذمم، ومثل هذه المواقع التي يكون سُلم الصعود إليها فساد في القلوب وثقوب في العقول باستمالة الأحلاف برشوة مقنعة أو عطاء يشتري الذمم... تنهار بنضوب العطاء وتتدهور بفراغ الجيوب، ثم يصير ركامها ثقلًا على الضحية إن لم يكن هو نفسه جلَّادًا تحبس أنفاسه بالخيبة والندم المتأخر... لهذا لم يفاجئني تفرُّق الناس عنه، وانفراط عِقد حِلْفه، ولم أُصَب بالدهشة وأنا أرى مَن كان حبيب الكل صارَ عدوَّ نفسه، لا شفيع له هنا ولا مُواسٍ، لهذا صمتوا... واستأنفوا شربهم كأن الأمر لا يعنيهم، وليتهم اكتفوا بنذالة الصمت، فبعضهم في تملُّق لحميد وولد الراضي، التمسوا العذر للحارس، وقال أحدهم والبقية تُزكي همهمات وحركات بالأيدي والرؤوس: «لقد صبر حميد كثيرًا... وصبرت نادية المسكينة أكثر... لو لم تضربه لضربه أحدنا...»!!

هؤلاء هم حواريو الضحايا إلى حين يسقطون السقوط المدوِّي... المؤلفة قلوبهم خمرا... و«حين تخِرُّ البقرة، يكثُر الجزارون»!!

لم يطل مقام عز الدين طويلًا ممددًا على الأرض، جرَّه الحارس إلى الجانب الآخر من الطريق، فكان يظهَر للمارة كمتشرِّد غلبه النوم... من زجاج الحانة، ظهر لي يحاول الوقوف... يُرتِّب ملابسه، يمسح نزيف أنفه بكُمِّه، وقد تورَّمَتْ عينه... ويختفي في شارع محمد الخامس... كأن شيئًا لم يقَع... وأنا جرعاتي غدت سريعة ومتتالية... علَّني أَطرُد صورة عز الذين من عقلي وأحاصر ألمي الطارئ!!

بعد لحظة، دخل منير الحانة، وطفق يبحث عني، وهو يجول ببصره في أرجائها، أشير إليه بيدي، فيُقبل مهرولًا ويجلس محاولًا التقاط أنفاسه، مردِّدًا وهو يلهث:

- خطرت لي فكرة أن أشرب معك كأسًا وأرافقك إلى البيت...!

ابتسمتُ بعدما طلبتُ له كأس ويسكي، وقلت:

- هل هذه فكرتك...؟!

- في الحقيقة... ظلَّت زينة تطن عليَّ وتُلحُّ... فجئتُ لأوفر عليك تعب الطريق وثمن التاكسي!

- هل هي في البيت؟!

- لا... تركتها في الكباريه...

يكتشف الفضاء ببصره محاولًا تحديد خرائط الحانة، يقصد علبة الموسيقى، يرمي في جوفها قطعًا نقدية... يختار زُمرةً من الأغاني، فيملأ صوت «الحياني» الأجواء... شجيًّا... نديًّا... مستفزًّا الذكريات المتربصة بالحنين لتجري في الدم نارًا... وحرقة... والخبايا الغابرة في العقل والوجدان... بأغنيته الخالدة «راحلة»... انخرط الجميع في ترديد مقاطع منها انخراط المسحور بالجمال، وبعضهم اكتفى بهزِّ الرأس دليلًا على التأثر... وآخرون رفعوا كؤوسهم لمنير استحسانًا لذوقه الرفيع... هم أنفسهم الذين ما رفلت لهم عين لمشهد القصاص الهمجي من عز الدين، تهزُّ مشاعرهم الموسيقى وينغمسون انغماسًا في جو كلماتها الحزينة... ويحار منطق الأشياء في فهم هؤلاء...!!

دنا مني حميد وهو يتفحَّص منيرًا، واستند على المشرب جواري... ثم همس في أذني وهو يشير إليه:

- هل... هو صديقك... أتعرفه؟!

- نعم... سي منير...!

- أظنني أعرفه...!

دق قلبي بقوة، خشية أن يعرفه حق المعرفة، فحميد هذا يعرف الكثير عن الحانات والملاهي، ويتبادل الأخبار مع زملائه في الحرفة في مناطق أخرى، أرد عليه مستنكرًا:

- لا... لا تعرفه... إنه ليس من هنا...!

- بلى... وجهه ليس غريبًا عليَّ...!

يشرع في التفكير وهو يتفحصه، ويفرك ذقنه... فجأة يصيح:

- آه...! تذكرت... ربما هو مغني شعبي...!

- لا... هو يعمل أعمالًا حرة...!

- أستاذ فيه شيء غريب... مثير... أيكون...؟!

أقاطعه في غضب وأصدُّه بنظرات قاسية:

- ماذا دهاك؟! أأصبحت مخبرًا أم محققًا...؟! دع الناس في حالهم...!

ينصرف... لكنه ظل ينظر إلى منير في ريبة وفضول كبير، محاولًا إنعاش ذاكرته، يعود منير إلى المشرب، بعدما حجز أغاني متعددة في علبة الموسيقى... يتفطَّن إلى نظرات حميد، يخرج لسانه ويقول له في استياء وقسوة»

- ماذا؟! أتريد صورتي...؟!

ثم يلتفت إلي ويسألني في غضب:

- ما باله هذا الكلب؟!

- يقول إنه رآك في مكانٍ ما... لكنه لا يتذكر...!

- وما لك متوتر... وليعرف... عليه أن يبحث أين تبيت أمه وأخته قبل البحث عن الناس...! فليذهب عند أمه... اشرب... لا تهتم... أنا خبير في هذا النوع من الأشخاص... مكالمة هاتفية من «شارل» لرب عمله وينتهي به الأمر في الشارع...

6

لم يكن صابر زميلي راضيا عن علاقتي بزينة، كنت أشعر به متردِّدًا في فتح الموضوع معي حول هذه العلاقة التي لا يباركها، وكان كلما زارتني زينة بالمكتب تجاهلها... أو اكتفى بسلامٍ باردٍ، أما لطيفة الكاتبة فكانت على مذهبه كظِلِّه، كل كلمة ينطقها تصير جزءًا من لغتها ومن قناعاتها، كانت تحسبه كاملًا، لا يتفوَّه إلا بالكلام الموزون والمنطقي الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من أمامه، وأنا في قرارة نفسي، كنت أراه مزيفًا، متناقضًا، يعيش بشخصيتَيْن، ما يفكر فيه ويعتنقه كفكر وقيم الانفتاح والتمرُّد، لا ينسجم مع اختياراته العملية... ونظرته للحياة، كان بخيلًا لدرجة الشح، يكتفي بالقليل من الأكل، ليس زهدًا في الطعام ولا حميَةً... وإنما اقتصادًا في المصاريف، بدلته البنية تكاد تفقد لونها من كثرة الاستعمال لكنه يبرر ذلك بمحاربة الرأسمالية وتجلياتها في الملبس والأكل، ورغم ذلك اشترى ضيعةً، يمارس فيها تربية المواشي ويكتري من الفلاحين أراضٍ يباشر زراعتها، وينخرط في صفقات لشراء وبيع السيارات المستعملة...!

أبدى أكثر من مرة استنكاره للحياة التي أعيشها والتي ينعتها بحياة الغجر، ولطيفة الكاتبة تتقاسم معه الرأي نفسه دون نقاش أو تمحيص، استغلَّ مناسبة اجتماعنا لتسوية بعض الملفات العالقة فانفرد بي بالمكتب، طلب من لطيفة أن تحضر فنجاني قهوة وألا يزعجنا أحد، قبل أن يدخل في صلب الموضوع تحدث في عدة قضايا وناقشنا المساطر ومنهجية الدفاع... ثم استجمع قواه وقال بنبرة الناصح الواعظ:

- عزيز...!. أخي... اسمح لي... لا بد أن أكلّمك في أمر مهم... كنت متردِّدًا في الحديث معك حوله... خوفًا من مسِّ مشاعرك أو تأويلك الأمر بأنني أتدخَّل في شؤونك الخاصة، لكن الزمالة والأخوة تفرضان عليَّ أن أعطي رأيي حتى لا أتحمَّل مسؤولية الصمت السلبي...! حياتك الآن في مهبِّ الريح... أصبحَتْ فوضى... تعيش مع مغنية كباري بلا أفق واضح... لا تنقطع عن شرب الخمر... هالتان سوداوان تتسعان يومًا عن يوم تحت جفنيك، وصحتك تتدهور من كثرة السهر... إلى أين سيؤدي هذا...؟! عليك أن تفكر في الأمر... وتعيد ترتيب أوراقك... هل تعتقد أنك ممكن أن ترمي بتاريخ زينة وحياتها إلى الوراء لو فكَّرت بالزواج منها؟! أبدًا سيظل ماضيها يقضُّ مضجعك... يؤلمك... لن تنسَى... لن تستطيع أن تعيش في هدوء وراحة بال وأنت تعرف ماضيها... مهنتَها... حياتَها...

ألوذ بالصمت برهةً، وأتفحَّص هذا الرجل الذي بوَّأ نفسه منبرًا لا يستحقُّه، ففي حياته ما يكفي من العبث والخيبات والتراجعات... هذا العلماني المزيف، اليساري الذي جمع بين تربية المواشي والزراعة والسمسرة في السيارات المستعملة والذي أكاد أحتقره، يخاطبني اللحظة في جُبَّة الناصح، وهو بالأمس القريب كان أشدَّ حرصًا على قيم اليسار... ألم يرفض ما يسميه «تبضيع» المرأة...؟! ألم يكن شرسًا في الدفاع عن نساء أكثر عهرًا من زينة؟! أين تلاشت لازمته: «هن ضحايا التهميش والظلم والاستبداد؟!» أرد عليه بنبرة قاسية:

- هل المشكل في مهنة زينة أم في حياتي؟!

- مهنتها جزء من الفوضى التي ألمت بحياتك...

- ألست يساريا حتى النخاع...؟!. هل ربط علاقة مع امرأة حتى ولو كان لها ماض خطيئة ؟!

- فكريًّا قد ننخدع... لكن لا أحد يهرب من سلطة الواقع... سلطة المجتمع التي ترسم حدود اللعبة...

- أي لعبة يا رجل؟!... الحياة كما أعيشها اختيارٌ... وليست رَمِيَة نَردٍ...! وهل المجتمع هو الذي يقود الطليعة أم الطليعة هي التي تقود المجتمع إلى التغيير؟! قل لي رجاءً... مَن يُغيِّر الآخر المثقف أم المجتمع؟!

- مع الزمن نتغيَّر... وننضج... وسلطة المجتمع أقوى من الفكر... وما كنا نعتقده لا يصمد دقيقةً أمام واقع الحياة اليومية...

- آه... هذه لغة جديدة... وخطاب برَّاق... لم تعد تنطلي على أحد الخطابات المزيَّفة التي تُجيّش العواطف لا غير... أتعني أنه علينا أن ننصاع لسلطة التخلُّف والقهر والكبت والقمع لنُرضي سلطةً غاشمة للمجتمع...؟! أي مجتمع؟! هذا الذي تعجنه السلطة على مقاسها... هذه السلطة التي اعتبرتَها دائمًا خصمًا...؟!!

- الصراع له إشكال ثانوي وأساسي... والصراع مع السلطة أساسي... ومعركة تحرير الشعوب تتطلب نفسًا طويلًا!

- في انتظار ذلك... يتحوَّل المناضل الطليعي إلى سمسار وإقطاعي ورجل قانون و... ويتزوج فتاة من البادية لم يمسسها إنسٌ ولا جان... يا أخي... حرام عليك... كفى من ترويج الوهم...!

ينتفض في غضب خفيف، ينتصب واقفًا، يُشعل سيجارة... يذرع المكتب ذهابًا وإيابًا، ثم يقول في عصبيَّة:

- وما العيب في أن يجتهد المناضل في أسباب الكسب وتنوُّعها ما دامت حلالًا...؟!

- ماذا؟! لم أكن أعرف أنك تهتم بالحرام والحلال...!!

- أقصد مشروعةً... بلا فساد ولا رشاوى...!

- تَكذِب على نفسك... وتُكابر... في داخلك صوت الإيمان تقمعه بالغطرسة والاستعلاء... وسأقول لك شيئًا... أن تكون يساريًّا لا يعني أن تكون بالضرورة ملحدًا... كنتُ في المعتقل... ومعي يساريون من الصف الأول... بعضهم يُصلي... ولا يجد حرجًا بين رفاقه... بل منهم من كان حافظًا للقرآن... عارفًا بشرع الله...!

- مضطربًا... يقول والكلمات عَصيَّة على التعبير:

- لستُ أنا موضوع هذا اللقاء... بل أنت...!

- أتستطيع أن تُنكر أنك كنت نذلًا بتَخلِّيك عن أسماء؟! الفتاة المناضلة التي كانت لك الرفيقة والحبيبة... والخليلة...؟! يا أخي لقد كتبتَ فيها شعرًا... وتقاسمَتْ معك حياتَك منذ الجامعة... وحين فكَّرت في الزواج اخترتَ أخرى... بحجة واهية... أنها لا تليق أن تكون زوجةً... يا أسفي عليك...!!

ينتفض في غضب جارف يركبه الاستكبار كما عهدته، أشعر به ضائعًا... تائهًا... تنهشه من الداخل الحيرة، يقول في تلعثم:

- الزواج... زواج... وله سياقات خاصَّة... لو تزوَّجت أسماء... لعشت جحيم الماضي...!

- ماذا تقصد؟!

- أسماء كانت تقاسمني الكأس... وكل أصدقائي كانوا يعلمون بذلك... بل كانت تصاحبني إلى الحانات... وفي جلساتي الخمرية في البيت كانت تحتسي الخمرة معنا...!

- ألم تكن تقول... إن المرأة حرة في حياتها... وكأس خمرة أو سيجارة لا يُنقِصان من قيمتها... وأن عليها أن تفرض نفسها على المجتمع وتكسر القيود... نحو المساواة...؟!

- نعم... لكن حينما يتعلق الأمر بالزواج... تُطرح قضايا أخرى...!

أضحك، ثم أقول هازئًا:

- الرجل العربي المتخلِّف... ما زالت تسكنه العذرية... والمرأة التي لا ماضيَ لها... والتي لم يمسسها جنٌّ ولا إنس... الغريب أن يَصدر الأمر منك... أشفق عليك... أسماء ضحية مِلَّة مزيفة صنعتَها أنت، وتأتي الآن لتُفتي في حياتي وقد أفتيت طويلًا في الحانات وفي الفضاءات العمومية، حول العلاقات الحرة والمتفتحة... يا أخي... اصمت... واخجل من نفسك... كانت أسماء رفيقةَ دربك... اعتُقِلتَ فلم تنقطع عن زيارتك... منحَتْك

جسدَها طواعيةً... ظنًّا منها أن ماركس يؤطر علاقتكما... ظنًّا منها أنك لا تعتبرها رخيصةً... واليوم أيها اليساري... تأتي لتُفتي في الأخلاق والقِيَم... وتعُدُّ ارتباطي بزينة مغنية الملاهي الليلية فوضَى...؟! أقول لك... أنت الذي تعيش فوضى من نوع خاص... احترمتُ في البداية قرارك بالتخلي عن أسماء... ظننتُ أن الأمر لا علاقة له بالقيم... لكن للأسف... تعيد النظر في كل مرجعياتك وتنسفها لحظة تقرر الزواج... وتتزوج من فتاة من البادية... هذه هي الفوضى... ارحم نفسك...!!

- اسمع الموضوع أكبر بكثير مني... أنا لست معزولًا عن المجتمع...!

- أما أنا... الذي كنت تُعيِّره بالإيمان... وتنتقد تناقضاتي بين عقيدتي وسلوكي... فأقول لك... الخطيئة واردة... لكني منسجم مع ذاتي، فرجاءً... دعني... أعش حياتي كما أرى... فلستُ يساريًّا ولا حتى ليبراليًّا... أنا فقط أعشق امرأة... لا يعنيني تاريخها ولا أصلها ولا فصلها... وفاؤها يكفيني... أما العذرية فتُرمَّم في عيادات الأطباء... وذاكرة المجتمع ضعيفة... ولا يهمني أي سلطة أخرى... غير سلطة قلبي... لستُ في فوضى... ما دمتُ منسجمًا مع نفسي... أنت الذي دشنت حياتك بفوضى... أنا على الأقل أستطيع النوم مرتاحًا...!

ينسحب مُطرِق الجبين، كأني أصبته في مقتلٍ، تَلِج لطيفة المكتب، أحدجها بنظرة قاسية، هذه المرأة المسترجلة، التي لا تلبس غير سترات بسراويل، قصيرة القامة، نحيفة، تنتعل دائمًا أحذية مستوية النعل، قَصَّة شعرها قصيرة جدًّا... ذكورية... تجد صعوبة في التخلُّص من الشعر الذي ينبت على ذقنها، حتى اخضر أصبح مليئًا بالبثور... رغم كثرة المراهم والكريمات، حتمًا هي على مذهبه... أعلم أنها كانت تتنصَّت على حواري مع صابر من وراء الباب، تبتسم وهي القليلة الابتسام، إذ التجهُّم جزء من شكلها، وتقول في سعادة غريبة:

- أحسنتَ الرد يا أستاذ ولو بقسوة... كان في حاجة إلى من يزلزله من الداخل... وأنا... فلا والله... آلمني جدًّا ما فعله بأسماء... فقط كنت محرجة

من قول ذلك... أيتركها ويتزوج من فتاة أتت بها أمه من البادية...؟!... يقول إنه يريد امرأة «خام» سخرية... للأسف كأن البادية معزولة عما يقع في العالم...!

ماذا وقع؟! أربحتُ لطيفةَ في صَفِّي... وهي التي كانت دائمًا من الأتباع الأوفياء في عمًى لصابر؟! كيف تحوَّلت بهذه السرعة؟! ما الذي غيَّرها؟! هل كنتُ مُقنِعًا لهذه الدرجة؟! أنهض، أدنو منها أربِّت على رأسها قائلًا في ارتياح:

- للأسف... هو لا يعلم أن الفضيلة لا وطن لها...

تنتفض كأنها صُعقت وتقول في خفة وبسرعة:

- نسيتُ... أستاذ... هناك رجل شيخ... طاعن في السن ينتظرك منذ مدة... لكن سأقول كلمتي وأخرج لأُدخِل الشيخ ربما نفد صبره... كنتَ على حق... زينة تحبُّك... وتحبها... أنت على الأقل واضح... رغم أنك كثير الشك... لكنك طيب و«ولد ناس»... لا أغفر له ما فعل مع أسماء... أكَلَها لحمًا ورماها عظمًا... ثم بلا حياءٍ يقول: فعلَتْ معي كذا وكذا... لم أكن أعرف أنه نذل... أحزنني ما فعل بها... والله... والله...!

أشعر بالدموع متحجِّرة في مآقيها... يعوق ضيق نفس استمرارها في الحديث، ثم تنهار وتجهش في البكاء وهي تُردِّد:

- «حشومة» عليه... عار وعيب ما فعل بها...!

أستغرب لهذا الموقف الإنساني من لطيفة... التي عهدتها بلا مشاعر... باردة العواطف، مسترجلة، فما إن بكَتْ حتى أشرقت الأنوثة في عينيها، وكان ضعفها قوة جمال، حرَّرها من قوقعتها... أمسح دموعها بمنديل... أضمُّها... أشعر بجسدها يرتعش وهي تنتحب... أهمس في أذنها:

- شكرًا لطيفة... أنت أعظم مما تظهرين... رجاءً كوني أنت... لا عيب أن نكون كما نحن... لا تبحثي عن المثالية... اخطئي... غامري... بادري... تصالحي مع الأنثى... دموعك الحارقة كشفت لي جمالك... ثقي في نفسك... تخلَّصي من أن تكوني كاملة... تحرَّري... تحرَّري...!

تنسحب في صمت، مطرقة الجبين، متثاقلة الخطو هذه المرة، خلافًا لعادتها في الخفة والهرولة... تشيعني بنظرة وُد وابتسامة قبل أن تغادر مكتبي... أنظر في عينيها... أكتشف أنني اليوم أضعفتُ صف صابر بصدقي... وحبي... وإيماني...!

تعود بعد لحظة، وما زالت سحابةٌ قاتمة تخيِّم على جفنيها وتقول:

- هل أُدخِل الشيخ؟

- لا... انتظري لحظة... 5 دقائق ثم أدخليه...

- وِي... أستاذ...

أُشعل سيجارةً. يسرحِ عقلي فيما قاله صابر، وأنا أتابع ما يحدث في الشارع من النافذة، أتذكّر دفاعه المستميت عن المساواة والحرية، أذكر أنه كان لا يجد غضاضةً في الدفع بحق المرأة أن تُضاجع من تشاء... في الحانة... كان فارسَ الخطابة لا يُشقُّ له غبار، فهو الأستاذ المناضل الذي أدَّى ضريبةَ إيمانه بالفكر الماركسي... اعتقالًا... وتضييقًا... كان يسمي المومسات عاملات جنس، نعم... يقدمن خدمةً للمجتمع لا تَقِل عن باقي الخدمات... وعلى الدولة أن تحميهن، وتُسوي أوضاعهن، ويستفدن من التقاعد والتأمين الصحي... كان لآرائه صدًى قوي عند المتردِّدات على حانة الطاحونة الحمراء، كان يعاملهن باحترام وتقدير... يعُدُّهن أول الرائدات في تكسير قيود التسلط والوهم، وكانت معه أسماء كالظل، يقرآن الكتب نفسَها، يُردِّدان قصائد درويش، ويسمعان أغاني مارسيل خليفة وفيروز، كان حينما تلعب الخمرة برأسه يرفع لأسماء في الهواء عاليًا الأنخاب ويردد: «من أجل أغلى امرأة على الأرض... من أجل أسماء... ما زال هناك على الأرض ما يستحق الحياة»... فجأة تبدَّدت الأفكار والنظريات، وصارت أسماء امرأةً غير صالحة للزواج... دورها فقط أن تكون خليلةً في فراشِ مناضل لا أكثر... للأسف تزوَّج من غيرها دون أن يقوم بطقوس الوداع بشكل حضاري... ما زلتُ أتذكَّر رأيه في الزواج... صداه ظل عالقًا بعقلي... فهو القائل بفخر: «إن الزواج استعباد... ونتيجة للسلطة المهيمنة عبر

التاريخ... الزواج تملُّك ذكي للمرأة باسم المؤسسة... الزواج أسطورة ذكورية...» فهل له الحق اليوم أن يأتي في جبة القديس ليفتي في حياتي...؟! أبدًا... لا شرعية لك زميلي... انهار الصنم...!

يدخل الشيخ المكتب في تُؤدَة، أرى في وجهه وحركاته أثر السنين، أتقدَّم نحوه، أشدُّ على يده بحرارة وعطف، أساعده على الجلوس مردِّدًا في حنو:

- تفضل عمي... مرحبًا... أتريد أن تشرب شيئًا؟!

بصعوبة ينطق... كان هرمًا طاعنًا في السن، أضناه الدهر وأنهكَتْه السنون حتى وهن منه العظم والنفس... يرتدي سترةً زرقاء، فوق كنزة ثقيلة من صوف الضأن، وسروالًا قصيرًا مُشمَّرًا عند مقدمة ساقيه اللتين بدتا نحيفتين، يقول في تعب وبصوت خافت مجهد:

- لا، شكرًا... ولدي... جئتك... يا بني في أمر مهم... قبل كل شيء... صلِّ على النبي...

- اللهم صل وسلم على الحبيب محمد...!

- سمعت أن حبيبة رحمها الله... ماتت...

- نعم... أمي... يرحمها الله... الدوام لله...

- بني... لم يبقَ بيني وبين الدار الآخرة إلا قَدْر هذا الشبر أو أقل... أريدك أن تكون قويًّا... فكل أمر بيد الله...

كأن الشيخ يريد أن يبوح لي بسِرٍّ خطير... ويهيئني لأمر جلل عكسته عيونه الخائفة، ولغته المرتبكة، تغلبه بحَّة وهو يقول:

- اسمع، يا ولدي...!

يتوقف عن الحديث، كأنه يبحث عن الكلمات، تنتابه كحَّة قوية، أسقيه كأس ماء، يبدو لي متعبًا، وينوء صدره بحمل ثقيل، أنظر في عينيه الغارقتين وسط وجهٍ غزَتْه التجاعيد العميقة وكانتَا غائرتَيْن... عميقتَيْن في رأسه من شدة الهزال، حادتي النظر ثم يقول :

- أنا العربي... خرجتُ من السجن منذ أسبوع... وكان لي زميل في الزنزانة اسمه عباس عابر، مات قبل سنتين... لكنه قبل أن يجود بروحه أوصاني

وصية... جئتُ لأنفذها... طلب مني أن أبحث عنك... لأمر مهم... أراد أن يُخلِّص نفسه من غَمٍّ جاثمٍ... ويَلقَى ربه تائبًا مؤمنًا...

شُلَّ تفكيري للحظة... فالاسم الذي نطقه هذا الهرم المتعب مرًّا ومرضًا على ما يبدو هو اسم أبي... شعرتُ بخوفٍ جديدٍ لم أعهده قبلُ في توجُّساتي القديمة... خوف فيه جَذْر شديد، لم ينشر الرجفة في ساقي، ولا تلك الرعشة التي كانت تسري في صدري!! أيكون هذا الرجل الغريب صادقًا؟! أكاد أطرده... وأوشك أن أغلق فمه بيدي، وأطلب منه الخروج، وعدم عرض ما تبقَّى من الحكاية، بَيدَ أن عقلي يريد أن يعرف من كان هذا الرجل المسمى أبي... يريد أن يكتشف سبب تخلِّيه عني وعن أمي... أكِنُّ لهذا الغائب... الهارب أبي منذ زمن حقدًا وكراهيةً... أعرف هذا الشعور الذي رعَتْه في صدري أمي سنينًا حتى صار نارًا التهمت كل رغبة لي في أن أراه... في أن أعانقه... في أن أبكي على صدره، كما يبكي الأطفال والمراهقون، ثم الكبار. لقد نشأتُ بلا أبٍ... بلا أصلٍ حي أراه بين عيني، أستمد منه القوة والسند، أستحضر حكمة أمي وهي تقول: «رحل وأخذ معه الأسباب... وترك في عيون الناس العتاب وفي الصدور نجوى اللئام». لا أملك أي صورة له أو عنه في خيالي... هل أغلق هذه الدائرة؟! هل أطلب من هذا العجوز أن يأخذ ذِكرَى صديقه بعيدًا عني ويدفنها في غياهب النسيان؟!

- توقف... الله يخليك... لا أريد أن أعرف شيئًا عنه... عذَّبنا حيًّا بالغياب، ويريد تعذيبنا اليوم وهو ميت...؟! فات الأوان...!

- أرجوك يا بني... عباس مظلوم... لو علمتَ الحكاية فقد تُغيِّر رأيك فيه...!

- أغير رأيي فيه؟! أجننت؟! يظهر بعد أربعين سنة... ميتًا ويطلب الغفران... لا لن يحظَى مني بهذا الصفح... فليحترق في الجحيم...!!

- دعني أشرح لك...!

- عفوًا ليس لي الوقت لسماع اعترافات ميت... والآن أطلب منك في أدب أن ترحل...!

- كيف أرحل؟! أنت مخطئ يا بني في حق رجل تظن أنه أبوك... الأمر لا يتعلَّق به... بل بحياتك...!

- كيف؟! عباس عابر ليس أبي؟! ومن يكون؟! هل هو تشابه في الأسماء...؟!

ترتجف شفتاه فتختلط معالم أحاسيس متعددة على وجهه، خوفٌ... ألمٌ... شفقةٌ... ارتباك... تداعت لها يداه بالرعشة واستجابت لها العين بالدمع، والقلب بالبكاء، ثم يردف متلعثمًا:

- يا ولدي...! هو أبوك... كما تظن... في الأوراق... لكنه في الوقت نفسه ليس أباك...!

ماذا يعني؟! أبي وفي الوقت نفسه ليس بأبي... أي جحيم اقتبس منه هذا الغريب لهيبًا يُلهِب به شكوكي، ومخاوفي؟! هل أكون ابن حرام؟! هل تكون أمي خائنة؟! تخور قوايَ، أشعر بضعف كبير في ساقي، أستلقي على مقعدي، أفك ربطة عنقي، باحثًا عن مزيد من الهواء، يرشح جسدي بعرَقٍ باردٍ، أطلب منه منهارًا أن يتكلم:

- هات من عندك...!

- أمك رحمها الله حبيبة أصلها من «الرحامنة»... كانت تشتغل مع الشيخ «الكوامنجي» «الزعري» الذي كان يطوف القبائل والدواوير رفقة «رباعة ديال الشيخات» أقصد فرقة... كلما نزل بقبيلة... نصب خيمة، فيأتي الشباب والرجال وحتى النساء ليلًا للاستمتاع بالأغاني الشعبية، أمك كان لها صوت جميل تغني ببراعة «الحوزي» و«العيوط»... علم عباس كما قال لي عن الشيخ الزعري... العازف على «الكمنجة»، أنها ابنة عائلة كبيرة... لم يفهموا أنها كانت مسكونة بـ«العيوط»... فهربت مع «الرباعة» حين حطوا يومًا بدوارٍ ما بالرحامنة... لم تكن عاهرةً... كانت شريفة... أصيلة... فاضلة... أقسم عباس بالله أنه لم يعرف أشرف منها... أنتم في هذا الزمان تخلطون خلطًا كبيرًا بين الأمور... كانت تؤدي وَصلَتَها... أمام إعجاب الكل... وتنسحب لتنام في الخيمة... يقول عباس إنه لم ينسَ اليوم الذي حطت فيه الفرقة بدوارهم... ببادية «دكالة»... تكفَّل بهم... زوَّدهم مجانًا بالتبن للبغل الذي كان يجرُّ عربتهم، وأطعمهم

ثم سمع صوتها الشجي... فتعلق قلبه بها... وهام بها... أراد الزواج منها فرفض أبوه... كان قاسيًا... فظًّا... ومتسلطًا... طرد «الرباعة» من الدوار وبدَّد متاعهم... وهددهم بالسجن... قَيَّد عباس بالسلاسل فحرمه من الطعام... قلب أمه رحمها الله كان رقيقًا... رحيمًا... تسللت في الليل وفَكَّت وثاقه... فرحل في جنح الظلام... ظل يبحث عن الفرقة شهورًا من قرية إلى قرية... إلى أن وجدهم في بادية «عبدة»... فتزوجا... وظلَّا مع «الرباعة» عامًا أو أكثر بقليل إلى أن قرَّرا الاستقرار في الدار البيضاء... اكتريا غرفةً على السطوح بدرب الإنجليز... المسكينة كانت تُمنِّي النفس بولد أو بنت... لكن ظهر أنها عاقر... فتبدَّل حالها... وتغيَّر مزاجها... كانت لها صديقة من ريف «دكالة»... قالت لعباس إنها ستغيب تسعة أشهر وتعود... أبحر عباس على مركب تجاري لمدة طويلة... وحين عاد وجد في حجرها طفلًا... زعمت في البداية أنها تبنَّتكَ من فتاة غرر بها شاب وحين اكتشف حملها تنكَّر لها فتخلى عنها ولم تعرف له أثرًا... لكن عباس اكتشف الحقيقة مع الوقت... فحبيبة رحمها الله وبمساعدة امرأة ما وربما مقابل المال... أخذتكَ من حضن أمك الحقيقية، وافتريا عليها وأوهما المرأة المسكينة بأنك متَّ بعد الولادة بساعات... فاستخرجت حبيبة شهادة الميلاد باسم عباس عابر من المستشفى نفسه... لكنه رحمه الله... لم يكن ليقبل هذا الظلم... ترجَّاها أن تعيدكَ إلى أهلك... لكنها رفضت... فاضطر إلى الرحيل... التقيتُه في سجن» العاذر» بمدينة الجديدة... تسبب لأحدهم في عاهة... في شجار... ثم مات في السجن بسرطان الرئة...!

بدأت الأفكار تتلاطم في عقلي كبحر هائج لا تعرف أمواجُه هوادةً ولا مستقرًّا، أيكون هذا الرجل مجنونًا أو مسلَّطًا عليَّ؟! رباه! ما العمل؟! أفي رمشة عين أصير لقيطًا... بلا أم معروفةٍ ولا أب؟! أ كل هذا العمر... كان خداعًا وكذبًا...؟! أجاهد للوقوف... أشعر بالأرض تدور تحت قدمي، أحاول أن أسند نفسي على الجدار أسقط... ضباب يلفني... ثم عتمة... فسواد كامل...!!

7

أفتح عيني... أجد نفسي على السرير بجانبي على طرف الفراش تجلس زينة وهي تشدُّ على يدي والدموع في عينيها، يحملق في منير مبتسمًا وقد انفرجت أسارير وجهه في فرح طفولي ويقول:

- أخفتنا... يا صاحبي... الحمد لله... أعرف أنك صلب وقوي...!

في حنو... تعانقني زينة وتضمني بقوة وحرارة وتقول وهي تبكي:

- الحمد لله... كم كان خوفي عظيمًا...!! لا تخف... الطبيب شرح لي الأمر... ارتفاع في الضغط الدموي نتيجة التوتر... لا شيء... يخيف... لا تنزعج... اهتمَّ فقط بصحتك... هذا هو الأساس...

أفتح عيني بصعوبة، أسألها بصوت متعب:

- كيف جئتُ إلى هنا...؟!

تقول وفي صوتها نبرة شفقة:

- بعدما أخذك الأستاذ صابر إلى المستشفى... اتصلَتْ بي لطيفة... وعرفتُ التفاصيل منها...

- والشيخ... أين هو؟!

- رحل... وسمعتُ منه كل القصة... الآن اهتمَّ بصحتك...!

- رجاءً... زينة لا تدعيه يرحل حتى نعرف منه كل التفاصيل...

- لقد رحل الرجل... وأين أجده...؟!

- لم أرَ زبيدة...!

- إنها مع شارل في باريس... سافرت أمس لأمر مستعجل ولكي تهيئ الظروف الملائمة للعملية الجراحية التي سيجريها منير...

أشعر برغبة قوية في النوم، أقاوم من أجل البقاء يقظًا صائحًا، لكن الرغبة كانت جامحة... أسترخي... ثم أغفو.

صباح يوم الغد... طفقتُ أعيد تركيب أحداث وفصول حكاية الشيخ، هذا الحدث عن أصلي وفصلي، قلب حياتي رأسًا على عقب، فلم أعد قادرًا على تحديد مشاعري تجاه أمي حبيبة التي دبَّرت جريمة اختطافي، اختلطَتْ في قلبي مشاعر الحب والغضب من المرأة التي ربَّتني، والتي توَّجْتُها ملكةً للحكمة...! كيف لامرأة كان حديثها عِبَرًا وأمثالًا تعبران من قلب الحكمة أن تكون بهذه القسوة؟! كيف لها وهي المؤمنة العابدة... المصلية... الصائمة... القوَّامة... أن تكون بلا قلب ومشاعر فتحرم أُمًّا من وليدها بهتانًا وكذبًا؟! كيف استطاعت أن تستمرَّ في الكذب والخداع جاعلةً مني مركز اهتمامها، وشغلها الشاغل، ومصدر وجودها؟! كيف كنت آمالها وحياتها وأنا غريب عنها ؟!... أتشفع لها كل مشاعر الحب والعناية والرحمة التي أحاطتني بها لأغفر لها ما فعلَتْ بأمي الحقيقية... وما فعلت بي أيضًا؟! لا أدري!!... اللحظةَ فهمتُ ذاك الحزن الذي كان يتملَّكها حين تحدق في مليًّا فتزفر آهات... ذاك الحزن الغريب والعميق الذي لم أكن أجد له مبررًا... والذي ينتابها وهي تتفرَّس في من حين لآخر...؟! أكانت تسترجع الماضي في ندم وحسرة...؟!

حاولت زينة على طاولة الغذاء أن تخفف وطأة الحدث الجلل على قلبي، وهي تَحُثني على شكر الله وحمده أنني عرفتُ الحكاية من الشيخ الهرم، وإلا لدُفِنت معه الحقيقة في قبره، وزاد منير وهو مبتسمًا قائلًا: «قريبًا ستتعرف على والديك... افرح يا أخي... ربما لك «كمشة» من الإخوة»...

شردت بذهني واستحضرت صورة أمي حبيبة... تلمست في خيالي تفاصيل وجهها، واستحضرت رائحة جسدها التي كنتُ كلَّما شقَّ عليَّ غيابها واشتقت لنسمة منها، أبحث عنها في ملابسها... وسريرها... ووسائدها.

شعرتُ بالغبن... بالغدر... بالخيانة... بالنفاق... ماذا لو باحت لي بالسِّرِّ قبل موتها؟! أكان الأمر سيكون أهونَ عليَّ لو عرفتُ القصة من فمها... وسمعت أعذارها؟! حاولت أن أكرهها... لكن للأسف، لم أستطع فعل ذلك، فالكراهية ليس لها زر في العقل نضغط عليه فتضرم نارها الحارقة... الكراهية... نار تشتعل رغمًا عنَّا، فتحرقنا أكثر ما تحرق الآخرين... في قلبي بذرة غضب أخاف أن تنمو وتصير شجرةَ يأسٍ لا تطعم روحي غير المرارة... ماذا لو علمتُ بالأمر وهي على قيد الحياة؟! ماذا كانت ستغدو ردَّة فعلي؟! لا أستطيع الآن الإحساس إلا بالغضب...!!

تقول زينة مُهوِّنة بابتسامة:

- لم يستطع الشيخ أن ينهي الحكاية، وطلب مني أن أحصل على صفحك وعفوك لعباس، فعباس «عابر» كما أكد عجز عن التصدي لحبيبة... فاضطرَّ إلى الرحيل مُكرهًا، مهاجرًا إلى مدينة «آسفي» وهناك وجد عملًا كبحار على ظهر مركب صيدي، قال الشيخ إن عباس عابر... في البداية... كان ينام في مخزن الشِّبَاك وأدوات الصيد إلى أن تصالح مع أبيه الذي زوَّجه ابنة عمه، فأنجبَتْ له ولدين وثلاث بنات... كلهم متزوجون... وله أحفاد وحفيدات... لكنه تشاجر مع أحدهم... ففقأ عينه... ومات في السجن...

- وهل أضاف أي معلومة نهتدي بها إلى والدي؟!
- قال... ابحثوا في قرية «أولاد الصياد»...
- وأين توجد؟!
- بريف دكالة... قرب سيدي بنور...

لم يكن لديَّ ما يكفي من المعلومات للذهاب في رحلة البحث عن الجذور، فالشيخ العربي لم يبخل عليَّ ببعض التفاصيل المهمة، لكنها ظلت غير كافية... ترك وثيقةً عند زينة تتضمَّن عدة معطيات مهمَّة، ذكر فيها أن أمي حبيبة أتت بي رضيعًا لم يتجاوز شهره الأول ملفوفًا في خِرقة بيضاء، ربيع عام 1961 ووصف له عباس ذاك العام بعام الحزن... إذ كانت أجواء

الحزن ما زالت مخيِّمة على البلد لرحيل الملك محمد بن يوسف وأن حبيبة قبل هذا التاريخ اختفت عن الأعين أكثر من تسعة أشهر لتُوهِم الجيران بالحمل والولادة...!

فهل أشدُّ الرحيل إلى قرية أولاد الصياد ؟!

كلما عزمت على السفر لأيام طويلة أقعدني هاجس أو خوف يشُلَّان عزيمتي... فقد هممتُ على السفر أكثر من مرة فأرغمني توجُّسي على التأجيل... طال التأجيل حتى صار تعطيلًا... وعادت قويةً عاصفةً نوباتُ الأرق تداهم لياليَّ، تهبُّ هبوبًا محمَّلًا بغبار الزمن الماضي، وبروائح أيامي التي مضت... تؤرِّق مضجعي وتُعرِّي ضعفي وذعري... كم التمستُ عبورًا مصطنعًا نحو الغفوة بالكأس... لكن الكأس هذه المرة لم تكن حليفًا كما عاهدتها... لم تعطل الألم... لم تُبدِّد الأرق... ضاعفت الأسئلة الحارقة... تحالفت مع القدر... فقوَّتِ الإحساسَ عندي بالضياع، وبدَلَ أن تمنحني سلامي النفسي المعهود تمرَّدت فجأةً... ولم تكتفِ بجرعات اليأس، بل نبشتُ بعيدًا في طفولتي وأنعشتُ صورًا كانت باهتة... لأمي حبيبة... لمشوارها... لكل اللحظات معها... وأخذتني بنارها الملتهبة يومًا عن يوم... نحو القلق... ثم الغضب... نحو الجحود... نحو منطقة لا ترحم... أنشأت فيها محكمة لمحاكمة أمي... حتى أوشكتُ أن أنصب لها مشنقةً، لكني لم أكرهها... فقط... غضبت... غضبًا شديدًا... فتخلَّى لساني عن نطق الأم وعقلي يستحضر صورتها... واكتفى باسمها في تعاقُد خبيث مع غضبي... وعظُم الغضب، فمزَّقت كل الصور... كل ملابسها... فقد صارت رائحتها تنتج أطواقًا تضيق يومًا عن يوم حول عنقي، وهمومًا كالحجارة الثقيلة تجثم على صدري فتضيق أنفاسي... ما عادت تلك الرائحة تريح الروح وتُبرِّد الشوق... لم أعُد أشتاق إليها... لم أعُد أفتقدها... ودعتها... غاضبًا... لكن غير حاقد ولا كاره...!!

اشتدَّ عليَّ التوجُّس من جديد والريبة مما يحدث... كانت زينة تنظر إليَّ في شفقة في البداية... ثم تحوَّلت نظراتها إلى قاسية تنتقد جُبني بلا

كلمات...! حتى حبنا أصابه الخلل، فصار باردًا بلا وهج ولا اعتصار... كدتُ أشك في كل ما يحيط بي، بدءًا للأسف من زينة نفسها، فحياتي تتخذ مسارًا جديدًا وما مضى منها بدأ يتبدَّد ويصير مجرَّد وهْم، فليس من اليُسر على عقلي ونفسي أن أُغيِّر كل شيء، الوضع الحالي على زيفه وأعطابه مُريح وغير مُكلِّف لي نفسيًّا، والبحث عن الأصل والجذور على أهميته مكلِّف وقاسٍ بنتائجه وتحوُّلاته، فلن يتوقَّف الأمر عند تصحيح نسب، بل ستنهار حياة كاملة، وتنهض على أنقاضها حياة أخرى، معالم وخرائط جديدة لحاضر ومستقبل لست مستعدًّا كفاية لهما، على الأقل وضعي الحالي آمن ومضبوط، فأنا لا أحب التغيير، بل لا أطيقه... بل أخاف منه... كل تغيير في حياتي كان مكلِّفًا... كان يكفي أن أغيِّر فراشي لأشعر بالحزن والأرق... فهل علي أن أغامر؟! هل يستحقُّ الأمر أن أتنازل عن المألوف من أجل المجهول؟!

تقول زينة مُصرَّة أن تربح المعركة دون يأس إنه عليَّ أن أختار طريق المجهول، وإن كانت ستقلب حياتي رأسًا على عقب... من أين تستمدُّ هذه المرأة كل هذه السكينة وسط العاصفة؟! تقول في استياءٍ وبحكمةٍ إن جُبني ووساوسي يُربكان المسار العادي للحياة، وإني أعيش ألمًا لم يحدث بعدُ... وقد لا يحدث أبدًا... وتُلحُّ... تطنُّ... كنحلةٍ نشطةٍ... تُردِّد بلا كلل أن العيش في الوهم لا يُنتِج إلا الوهم... وأن رحلة البحث عن الأصل لا بد منها، وليست ترفًا ولا اختيارًا، بل هي ضرورية... لأننا ننتمي إلى مكانٍ ما... إلى لحظةٍ ما... ومنهما نستلهم أمل الوجود...!!

أي وجود يا زينة هذا؟! يكفيني هذا الوجود الذي أَلِفتُه... يكفيني أنتِ... كوني جذوري... كوني أصلي الجديد... يا حبيبتي أيُّ وجود...؟! فوجود جديد حتمًا سيتأسَّس على الحُرقة... على الهدم... على القطيعة... يا زينة...! رجاء لا تكوني قاسية... ارحمي عقلي ودعيني أنشُد السلام في وضعي هذا في سريرك... بين أحضانك... في عالمك... فعالمي وإن بدا لكِ وهمًا... آمن... آمن...!

بيدَ أن زينة عازمة على الحسم بأي ثمن... يتحوَّل الأمر إلى السجال، ثم الخصام... فالمقايضة المؤلمة... وتقول ذات ليلة:

- عزيز... تخلَّص من هواجسك... تخلَّص من خوفك... ارحل نحو جذورك...!

- زينة...! قد تكون جذورًا من شوك وَحَسَك... قد تكون أرضيَّة من رمال متحركة... قد تكون جحيمًا من نار محرقة...!

- ولتكن ما تكون... هي خير من الزيف والوهم...!

- ستتغيَّر عدَّة أشياء... ستتبدَّد ذكرياتي القديمة وتصير هباءً...!

- لن تتبدَّد... ستصير تجربةً رائعة تضيء درب الغد...!

- زينة...!. الغد مخيف...!

- والحاضر مزيَّف...!

- أ... لا بد من التغيير...؟!. إنه جد مكلف... جد قاس... ستموت فيه... صور... أحداث... عواطف... أفراح... أحزان... محطات... أحلام...!

- وسيولد الأمل... الحقيقة... بدل الوهم...!

- لا... رجاء... أنا مكتفٍ بالوهم...!

- لم أحسبك جبانًا... خائفًا... من حقيقتك... حان الوقت... أن تختار بيني وبين الوهم...!

- ماذا تقولين يا حبيبة القلب...؟!

- أنا جزء من الواقع... من الغد... فاخترنا معًا...! الجذور... وأنا... فنحن متلازمان...!

- آه...! رجاءً... خففي قسوتك على العقل الحائر...!

- عِدني بالرحيل في أقرب وقت... وعْدًا ساريَ المفعولِ وفي قلبك الأمل... وبَدِّد حيرتك وخوفك بضوء الحقيقة...!

- كلامك حكمة... مِن أين أتيتِ بها؟!

- من قلبي المفجوع الذي احترق أكثر من مرة...! من أرضي التي اغتُصِبت... من أسرتي التي تشرَّدت وساحت في الأرض...!

- سأرحل... سأرحل...!

حدث الأمر في دجنبر...

كان الجو متقلبًا... رياح قوية تصوّت أحيانًا محمَّلة بالغبار تأتي من الغرب... وأحيانًا أخرى تهبُّ في شكل زوبعة لا تستطيع حواسُّنا تحديدَ جهة هبوبها... لم تمطر بعدُ... تخوُّف سَرَى في القلوب وملأ العيون من جفاف محتمل، ثم تشكل على الألسنة أدعية مألوفة هنا وهناك، وتوسُّلًا للطف لا تخلو منه مجالس ولا تجمعات... اشتد القرُّ على الناس... فطغى الحديث عن قسوته حتى غطى على مواضيع ذات شأن من أحاديث الساعة، ولن تسلم الأجساد من علل مَردُّها إلى الأجواء الباردة غير الممطرة... تعافيتُ من زكام ألمَّ بي... ثم انطلقت نحو قرية أولاد الصياد وبي وهن من سعال مُلِح... ألم أضلعي وصدري... لم تكن الرحلة سهلةً على متن سيارة أجرة كبيرة تكدس فيها ستة ركاب عدا السائق... غير مكيَّفة... مهترئة... يكاد البرد القارص يهدُّ الأبدان فترتجف له الفرائص لولا تلاصُق الأجساد التي أراحها ذلك على مشقته...!

الطريق غير مُعبَّدة إلى أولاد الصياد ببادية سهل دكالة، لكنها قرية صغيرة على حدود ريف السراغنة القاسي المناخ والأرض... مسلكية ترابية لا تخلو من منعطفات خطيرة وموحشة، قلَّما نُصادف سيارة أخرى فتتقاطع الأضواء مبدِّدة الوحشة، تبثُّ سكينة غريبة في القلوب... بعض الجرارات تبدو كوحوش كاسرة تشق العتمة. بأضواء ضعيفة وأصوات هادرة، يأبى السائقون أن يُفسحوا الطريق في عناد واستهتار، فيعمد السائق إلى تفاديها بانعطاف مفاجئ وبهلواني، لا يُعِره من معي بالًا، بينما أنا يخفق له قلبي خفقانًا شديدًا وسريعًا، ويتملكني الجزع.

وصلتُ عند المغيب... القرية شبه صامتة يلفُّها الغموض والضجر... احتضار الشمس وهي تنزف شفَقًا قرنفليًّا في موتها اليومي، زاد من غربة المكان وقسوة اللحظة، قرية جد صغيرة كئيبة المعالم والظلال والأفق، تكاد مظاهر الحياة تخلو منها عدا ظلال هنا وهناك تمرق بين الأزقة الضيقة في جلابيبها الثقيلة...

تسري رويدًا رويدًا العتمة في الأرجاء في النفوس ويبدأ الليل في نسج عباءته القاتمة في كبرياء... فأعمدة الإنارة الموزعة بدون تنسيق هنا وهناك، وضوؤها الخافت الشاحب الأصفر الذي يشرع الصدر لمشاعر حزينة، أضعف من أن يزاحما الظلام على الوجود... طرق تعبر القرية يتيمة هذه القرية الغارقة في العزلة، وتتوزَّع على جنباتها دكاكين مغبرة مغلقة، على عتباتها استلقت ظلال لكائنات بشرية... في ملابس رثَّة، وأجساد عَلَتْها بقايا التراب والطين... من حين لآخر تومض أضواء متفرِّقة وأحيانًا متقاطعة... ضعيفة لمصابيح يدوية تشقُّ العتمة التي تلفُّ منحدرًا يؤدي إلى القرية... ثم تتلاشى بعيدًا... تربض كلاب هزيلة... منهكة في أكثر من مكان... أتفرَّس في وجوه بعض القرويين الذين استلقوا على الأرض متوسِّدين أياديهم، أمام بوابة السوق الأسبوعي... يبدو أنهم عمَّال زراعيون من منطقة أخرى أو باعة جائلون... يقضون الليل في انتظار الصباح... أُضطرُّ إلى تجاوز خندق ترابي مُلتوٍ غير مستقيم العبور... شقته حتمًا أيادٍ مرتجلة، تصميمه بلا حماس، وبدون مهارة ولا تخطيط... خندق تجمعت فيه وترسَّبت مياه عكرة... آسِن... تفوح منه رائحة العفونة بقوة... بصعوبة أعبره وأنا أحط قدمي على حجارة متفرِّقة، كادت قدمي أن تزل كأن رائحة الجيف تنبعث من مكان ما... أنش الناموس والذباب عن وجهي بيدي... وأنا أتحاشى شم الرائحة الكريهة القوية بكُمِّ سترتي... أزبال منتشرة وأنقاض الهدم متراكمة هنا وهناك... بيوت إسمنتية تنتصب غير مكتملة على أنقاض بيوت قديمة من تراب وطين ينبعث من نوافذها ضوء يؤشر على وجود الحياة والناس، كلاب ضالة تجوب القرية وتملأ فضاءاتها بالنباح ثم العويل... تنبش في المطارح والمزابل... في صراع مع قطط شرسة تموء مواءً حادًّا من الخوف والتأهُّب للدفاع عن نفسها... مركز صحي متهالك، من البناء المفكك يجاور مقر القيادة، وبناية متآكلة كتب على واجهتها بخط رذي مدرسة «أولاد الصياد»...

أتخذ مكانًا منزويًا بالمقهى... أثير انتباه الزبناء، فيُحوِّلون أنظارهم نحوي... متفرِّسين، متفحصين علَنًا بلا تحفُّظ... أشعر بالتوجُّس...

أنتصب واقفًا... أهم بالخروج... يستأنفون لعب الأوراق و»الداما»... أعود وأجلس وعيناي عليهم من الريبة... توزَّعوا على طاولات متسخة زرقاء اللون داكنة، تعلو وجوههم الغبرة وسمرة من جراء شظف العيش وقسوة الظروف... يتهامسون، يضجُّون ضحكًا وهم يُصوِّبون نظراتٍ متقطِّعة نحوي... تنتابني رعشة من قُرٍّ وذُعرٍ... أرقب أحدَهم يغادر وهو يلتفت إليَّ بينما شيَّعه الآخرون بنظرات حتى اختفى في بناية القيادة... تُرى أين ذهب؟! يعود ويأخذ مكانه مع الجماعة، بعد دقائق، يظهر «مخزني» في بدلته النحاسية الرسمية، وقبعته ذات الشريط الأحمر... يتقدَّم نحوي... منتصبًا... في كبرياء... يقول:

- السلام عليك...

بقدر ما أراحني ظهور المخزني، بقدر ما فاجأني حضوره الغريب... فما زلتُ لا أرتاح لأصحاب الزي والبدلات العسكرية...

- عليك السلام...

- اسمح لي... إنْ سألتك.

- تفضل...

- لا نعرفك... ولست ابن القرية... ولا النواحي... هل تنوي المبيتَ في القرية؟!

- لا... لماذا؟!

- لأنه... لا مكان لك للمبيت هنا... والليل كما تعرف... يكثر فيه اللصوص وقُطاع الطرق...!

- لا أنا من الدار البيضاء... ولا أنوي المبيت...

- هل جئت في حاجة معينة...؟!

- لا أعرف ما زلت أنتظر مكالمة هاتفية...

- هل يمكنك أن تُطلعني على بطاقتك الوطنية...

- لا مانع...!

يتفحَّص البطاقة، يردُّها لي... ويقول:

- أعانك الله... «اسمح لي»... لو وجدت مشكلة ما أنا هنا في المداومة الليلية بمقرِّ القيادة...!

- شكرًا... الله يرحم والديك...!

يخطو بعيدًا، يجر ساقيه المثقلتَيْن من ثقل جزمته العسكرية، ينزع قبعته، تظهر صلعته، يرمقني بنظرة سريعة أخيرة... قبل أن يختفي في مقر القيادة... أُحوِّل نظري إلى القرويين، تتقاطع عيوننا من جديد، أضبطهم متلبسين باستراق السمع في اهتمام كبير، يغضُّون الأبصار بسرعة، ويعودون إلى ما كانوا فيه، وهم يتجادلون بصوتٍ عالٍ... ثم يسكنون... ثم يتهامسون... وهذا حالهم... صخب... سكون... همس... ينهض أحدهم من مكانه يقترب مني، يسلم، ثم يقول وهو يسوي «طاقيته»:

- سيدي... سمعت الحديث الذي دار بينك وبين «الشاف»... إن كنتَ تنوي المبيت... مرحبًا بك عندي...

أبتسم في وجهه، أنظر إليه، وقد ارتسمَتْ عليه معالم الطيبة، حين انفرجت أساريره، وكان كهلًا...

- الله يخليك... شكرًا... أنتظر صديقًا!

- المهم... أنا هنا... مرحبًا بك... أيها الغريب... بيتي بيتك...

بدَّد الكهل مخاوفي بعَرضه الجميل هذا وابتسامته الصادقة، أشعر أنها لم تكن باهتةً مزيفةً، وقد أدخل إلى قلبي حديثُه بالطمأنينة، انسحب الرجل، فسحب معه من صدري توجُّسي من القرويين... فجأةً يعلو القرية صوت إقامة الصلاة... ينسحب بعضهم مهرولًا ويستمرُّ الآخرون في لعب الأوراق...

يرنُّ هاتفي:

- ألو...!. سي عزيز السلام عليكم... اتصلت بك... هاتف لا يرد...

- من؟! سي عبد السلام...؟!

- هل أنت في الدار البيضاء...؟! عندي لك معلومات مهمة...

- لا أنا في دكالة... وبالضبط في قرية «أولاد الصياد»...

- اسمع... لقد كلفتَني بأن أبحث لك في القضية... ومن باب الزمالة... تجشَّمت المشاقَّ حتى أتيتك بمعلومة خطيرة... بحثت في أرشيف سجلات المركز الصحي... لأولاد الصياد... لقد كان العمل صعبًا شيئًا ما، فالأرشيف غير منظَّم، وطاله الإهمال وخصوصًا ملفات الخمس السنوات الأولى بعد الاستقلال... وجدت سجلًّا مغبرًا لمواليد 1961، لكن أمرًا مريبًا أثار انتباهي... أمر حصل يوم 23 مارس...!

- ما هو...؟! رجاءً...!

- في ذاك اليوم، وفي الساعة نفسها... 11ليلًا... ولد طفلان... سُجل في الدفاتر مولودان... ذكران... أحدهما أشير إليه بعبارة ولد ميت...

- -هل الوالدان مُسجَّلان...؟!

- نعم... الوليد الذي وُلد ميتًا، أمه هي «عائشة الزوالي» وأبوه هو «المعاشي القاسمي»، والآخر الحي استُخرجت له شهادة الولادة باسم حبيبة بنت القرشي وعباس عابر... يبدو أن الأمر يتعلق بمولود واحد... لم يمت... والذي أثار استغرابي أكثر هو أنني كابن المنطقة لا أعرف حبيبة بنت القرشي ولا زوجها عباس عابر... الأسرة المحتمَلة لك تقطن بدوار «الحرث» على بُعد بضعة كيلومترات من القرية...

- شكرًا... الله يخليك... الله يرحم الوالدين... المهم... أظن أن الخطة كانت هي إيهام أمي وأبي الحقيقيين بموتي، وتسليمي لحبيبة التي ربَّتني، مع استخراج شهادة للولادة، كأنها وضعت...!

- لا وسيلة للتنقل إلى دوار «الحرث» غير النقل السري... سل أحدهم لن تضل الطريق...

ها أنا ذا وحدي أسير نحو قدري المحتوم... على الطريق الممتلئة بالحصى والرمال، تمرُّ أمام عيني الأشجار والحقول، فتُشعرني بالغثيان، لا أعرف هل هو الخوف الذي سرَى في عروقي أم غثيان الحركة؟! عقلي موزَّع بين الخوف والحيرة... نعم... كم أنا خائف من المنتظَر... من المجهول... من فتح باب لا أعرف ما وراءه... هل الجنة أم النار؟! هل الخيبة أم الفرحة؟!

الأسئلة المؤلمة تضغط بشدَّة على قلبي... وعقلي... ماذا لو تنكَّرلي الأبوان؟! ماذا لو كنت وجودًا ماديًّا شاهدًا على نزوة عابرة لامرأة في مرحلةٍ ما؟! ماذا لو كان ظهوري المفاجئ في حياة هذه الأسرة سيُفجرها من الداخل؟!

داهمني شعور قوي بالريبة والحذر، أعدتُ في عقلي تفاصيل حكاية الشيخ العربي حول أصلي وطريقة اختطافي، فاختارعقلي مرةً ثانية المسلك الوعر، وعاد يُشكِّك في الحكاية، ويضع الرجل أمام مدفعية التوجُّس... ماذا لو كان كاذبًا... أحمق... مسلَّطًا عليَّ من جهةٍ ما ليُنغص عليَّ حياتي؟! كيف صدَّقته بهذه السرعة؟! كان عليَّ أن أتركه رهينةً عندي حتى يكون شاهدًا على الماضي والحاضر؟! ككُرةِ ثَلجٍ تكبُرأسئلتي وهي تتدحرج على سفح مخاوفي، تكبُر... لتصيربحجمٍ لا يطاق... أشعر بالاختناق، أفتقد زينة في هذه اللحظة... أفتقد كأسًا... أنظر إلى السائق وأسأله:

- هل اقتربنا؟!

- قريبًا... إن شاء الله...

السيارة المتهالكة تمخُربحر الظلام، بأضواء ضعيفة، ورائحة الروث قوية تملأ الأجواء... لا ينبس بأدنى كلمة... من حين لآخر ينظر إليَّ نظرة عابرة... أشعربرغبته في الكلام... لكنه متردِّد... أشعربفضول هذا السائق السري... حتمًا... عدة أسئلة تدور في خلده... مَن هذا الرجل القادم من المدينة؟! عند من سينزل في هذه الليلة؟! ولِمَ... جاء هنا في هذا الليل؟! أفاتحه بالحديث مبادرًا علَّني أُبدِّد وحشة الصمت وأخفِّف وطأة العتمة:

- هل أنتَ من دوار الحرث؟!

- لا... أنا أسكن في القرية... قرية أولاد الصياد...

- هل تعرف سي المعاشي في دوار الحرث؟!

يرمقني بنظرة استغراب خاطفة، يُخفف السرعة بشكل مفاجئ حتى اهتزَّت السيارة، وكادت جبهتي أن ترتطم بالزجاج الواقي، ثم يردف:

- لمَ تسأل عنه؟! هل تعرفه؟!

- نعم... هو من العائلة...

- لكن سي العياشي «الفقيه» الرجل الطيب مقطوع من شجرة... لا إخوة له وليس له أبناء... ربما أنتَ من قرابة بعيدة...؟!

- نعم... صدقت...!

أصمتُ من جديد، وأنا أفكر فيما قاله السائق... «الرجل لا إخوة له ولا أبناء... وفقيه... أي إمام مسجد متواضع ويُصلي بالناس «الأوقات»...» طافت بعقلي بغتةً فكرة العودة... وتمنيتُ لو كانت معي زينة وأنا أشعل فتيل الريبة من جديد في عقلي وقلبي... فأشعر كأن سكاكين حادَّة تقطع أحشائي إربًا إربًا... لكنها اختارت ألا تأتي، اختارت أن تتركني أواجه الوضع بشجاعةٍ بعيدًا عن كل الأطراف... نعم... أعلم أنها لا تريد أن تظهر رفقتي في هذا الظرف بالضبط، قالت وهي تودعني في شجًى: «لو سألوك مَن أنا... هل لك من جواب؟!» طبعًا... لا جواب... خليلة... رفيقة... صديقة... عبارات صادمة في البوادي المغربية...

تتوقَّف السيارة في الظلمة... إلا من أنوار بعيدة، لمنازل متفرقة هنا وهناك، يترجَّل ويقول:

- هذا هو بيت سي المعاشي... أعانك الله...

لم يمهلني كثيرًا من الوقت، وضغط على الدواسة وانطلق بسرعة مثيرًا الغبار، ليختفي ويختفي معه ضوء السيارة، فتنتشر الظلمة.

أمام سياج حجري متهالك رُصَّ من حجارة قديمة متراصَّة من دون ترتيب، أقفُ مستجمِعًا أنفاسي، مرتِّبًا فوضاي الداخلية، أدنو من باب قصديري... نباح كلب شرس مزَّق صمت العتمة... رعشة تدبُّ غريبةً في صدري... اختلط القُرُّ والجَزَع... أطرق الباب طرقًا خفيفًا ثم قويًّا وأنا ألتفت في ذعر يمينًا ويسارًا وخلفي... كأني أسمع حثيث خطو... أنتظر لحظة، أستعجل أن يُفتَح الباب... وأخيرًا جاء الفرج... ضوء شاحب يدنو ببريقه من الباب... فتدنو معه السكينة من قلبي... صارت أذناي تلتقط حثيث الخطو من أكثر من جهة... عقلي يرقع الأسباب طردًا للذعر... ثم ينفرج الباب عن فرجة ضيقة، ويُسلَّط الضوء منها... تطايرت على أزيزه

الحاد بعض الدجاجات وقد ملأ ريشُها الفضاءَ، تبدو امرأة عجوز، في يدها قنديل، ترفعه لترى وجهي وتقول في صوت متعب، خافت...:

- مَن ؟! مَن ؟!

كأن لساني عُقِد، وفكري شُلَّ، ولغتي تفتَّتت، ظللتُ للحظة أبحث لها عن جواب، ولا أعرف لِمَ لَمْ أستعد لهذا اللقاء بما يكفي...؟!!

- مَن ؟!... شكون ؟!...

استجمعتُ قواي، وتمنيتُ لو كان بالإمكان الحصول على جرعة ويسكي حتى أواجه الموقف بشجاعة كافية... فرددتُ عليها في تلعثُم واضح:

- مساء الخير... هل سي المعاشي موجود...؟!

- لا يا ولدي هو في المسجد... لكن من أنت...؟!

- أنا ضيف الله... جئتُ من الدار البيضاء...

توسع المرأة فرجة الباب ثم تشرعه... الأزيز يرتفع... فترتفع معه درجة التشويق في قلبي وقد تمكَّنَت الحيرة من العقل.

- ادخُل... مرحبًا بضيف الله... انتظره حتى يعود... فالليل قد حلَّ... والخارج بارد...

تجاوزتُ السور، فإذا أنا في باحة متربة إلا من حجارة بيضاء كبيرة ناتئة من قلب الأرض... متفرّقة كشاطئ صخري وسطها كرمة عالية ومتشابكة الأغصان... على يمينها زريبة، ارتفع نهيق حمارمنها، ومن كُوَّة ضيقة انساب ضوء خافت لقنديل معلق على عمود في وسطها. زاد الفضاء غرابة لحد الخوف الضوء الخافت والصمت الموحش... إلا من نعير الصراصير القوي في تناوُب غريب مع نقيق الضفادع الآتي حتمًا من بركة متاخمة، ونباح كلاب شرسة... يتصاعد حتى يستحيل عويلًا مفزعًا... أما هذا الكلب في الباحة فلم يتوقَّف وألحَّ في النباح كأنه لم يستلطف حضوري... لوَّحت له المرأة العجوز بيدها، فهدأ واستلقى قرب الباب...

أدخلتني غرفة مستطيلة الشكل... غير عالية السقف... صغيرة الباب، الجدران مطليَّة بالجير فقط وبخاصرتها خط من صباغة خضراء قاتمة،

نافذة يتيمة تكاد تلامس الأرض، صغيرة تطل على الحوش، والأرضية مفروشة في تواضع ملحوظ بحصير ملون الأشكال، ومغطًّى بأغطية ملونة منسوجة من خِرَق الأثواب، وسائد عريضة قرنفلية اللون، يبدو عليها أثر الزمن... ورائحة التراب تنبعث منها بقوة، جهاز راديو قديم الطراز، على مائدة مستديرة، أشعلَتْ بيدَيْن مرتجفتَيْن سراجًا غازيًّا، فانتفخَتْ فتيلتُه ثم زفرت فأضاءت بقوة كمصباح كهربائي... جلستُ على بطانية ناعمة لكن وثيرة على حصير منسوج من نبات الدوم واتكأتُ على مسند وقَى ظهري من برودة الحائط، وشرعتُ أتفحَّص الوجه النحيف للمرأة، وخطوها الثقيل، وقد تغطَّتْ بلحافٍ أبيض، وشدَّت رأسها بمشد من ثوب ناعم، بيد أن بياض شعرها بدا منتشرًا من خلال شُعيرات فضية طائشة... كانت في كل خطوة تئن، ويكاد ظهرها يصير مقوَّسًا، تغيبُ في المطبخ، الذي ظهر لي أن ناره ما زالت موقدة في الفرن الطيني، تصلني رائحة الرغيف الطازج الشهي... من بعيد أرى أثر الأدخنة السوداء على الجدران والسقف... وبقية رماد على العتبة.

- مرحبًا... ولدي... اجلس حتى يأتي الفقيه... سأعد لك الشاي...
- الله يخليكِ... لا أريدك أن أتعبَكِ...
- لا... ضروري... أنت ضيف الله... ومرحبًا بضيف الله...!

لا تعرفني هذه المرأة الطيبة العجوز، وأدخلتني بيتها، دون أن يتملَّكها الخوف ولا حتى التردد، كانت فقط توزِّع ابتسامةً جميلةً، تجعل وجهها المتجعِّد يشعُّ ضياءً، وحضورها ينشر السكينة والطمأنينة، ها هي تدلف نحو المطبخ، جسدها الواهن، وبِنيَتها الهزيلة، لم يمنعاها من أن تكون مضيفة نشطة... مرحِّبَة... فرِحَة... بشوشة... وأنا الغريب الطارق ليلًا الذي لا تعرف عنه شيئًا، لم تكن هذه المرأة العطوف في فيض وجداني غامر في حاجة إلى التحقُّق من هوية الطارق، ولم يتسلَّل إلى رَوْعها أدنى شعور بالتوجُّس ولا الخوف، هكذا فقط... بعفوية فطرية، وبكرم الروح قبل الزاد، جعلتني جزءًا مما تبقى من هذا اليوم.

قالت وهي تضع صحن اللوز، وآخر به زيت الزيتون، وأرغفة ما زالت ساخنة، ينبعث منها بخار عبق برائحة طيبة... للخبز الشهي:

- اسمع... أنا... يا ولدي...!. لا أعرفك... لكني أشعر أنك لستَ غريبًا عني... قد تكون من العائلة... ولكن اعذرني... السنُّ والمرض...

- أعتذر على إزعاجك... اسمحي لي...

- لا تقل هذا يا بني... دارسي العياشي كانت دائمًا زاوية للغريب ولغير الغريب... اسمع... الأمس حلمت حلمًا غريبًا... كأني استيقظت ووجدت في الحوش نخلة فارعة... وكان الرطب يتساقط منها سردتُ رؤيتي على عمك العياشي فقال وهو يضحك كعادته: إنه خير... ربما تلدين لي طفلًا ذكرًا... عمك يهزل أحيانًا... يعرف أني عجوز... بلغتُ سِنًّا لا تحبل فيه النساء... منذ سنوات... أخذنا حقَّنا يا بني... وكفاية... عمك المعاشي يقول هذا لإضحاكي... لكن هل مَن كان في سِنِّي يريد شيئًا آخر من الدنيا غير الستر والموت على الإيمان...؟! اللهم ثبتنا على الشهادة... ربما لو عاش ذاك الوليد لكان في عمرك «قياس الخير»!

- ربما خير... مَن يدري... الأحلام تأتي أحيانًا صادقةً... فقط يجب إجادة تفسيرها...

تسكب كأس شاي ساخن، تمدُّه لي، ألمح وشومًا على كفيها، تُدني مني صحون الزيت والسمن واللوز، وتعود لتمُدَّ لي رغيفًا ساخنًا وهي تلحُّ عليَّ في حنو:

- كل يا بني...!. ربما لم تذُق شيئًا منذ الغذاء... كل... فالقر قارس للأبدان، وللبطون...!

أشعر بقشعريرة برد تدبُّ في مفاصلي، أفرك يدي، تفطن لذلك تنهض واقفةً بمشقة... تُحرِّر غطاءً من غشائه البلاستيكي، وتغطيني به، أشعر بالغطاء جديدًا... ناعمًا... ورائحة الجِدَّة تنبعث منه...

- الله يخليك...!

- نحن في الخريف... وقر الليل في البادية صعب لا يطاق...!

أسمع وقع خطى وحثيثًا وراء السور، الكلب لا ينبح رغم ذلك، طرق على الباب، تفتح المرأة العجوز، يصلني صوتها وهو تقول:

- سي العياشي... عندنا الليلة ضيف الله...

أسمعها يردُّ عليها بصوت به بحَّة، ونبرة تشعرك بوقار صاحبها:

- مرحبًا بضيف الله... هل قدمتِ له الشاي ؟!

- ادخل... فهو في غرفة الضيوف...

أثِب واقفًا ما إن يتجاوز العتبة، بعفوية وحياء، أُقبِّل يدَه، أنظر في عينيه الحمراوين، أشعر بالأب قبل أن ينطق، ألست مصابًا باحمرار العينين دون حساسية أو مرض يُذكَر ؟! كثُّ اللحية في تشذيب وعناية عكسَتْ وقارًا بهيًّا دون عبوس قاسٍ ولا تجهُّم فظٍّ، يتَّشح ببرنس أبيض، ويعتمر عمامة بيضاء، وفي يده سبحة من حبات خشبية، نظر إليَّ مليا، ثم قال في حنو:

- السلام عليكم، وجهُك ليس بغريب عنِّي... أسَبَقَ أنِ التقينا...؟!

- لا سيدي هذه أول مرة... آتي إلى هنا...!

- الأمر غريب... كأنني أعرفك...!

ترد عليه زوجته وهي تهش الذباب عن الصحون، بمنديل:

-هكذا أبناء الحلال... «أولاد الناس»... تراهم من أول وهلة فتجدهم في قلبك...!

تصبُّ له كأس شاي، يرشف منه، وهو يحدجني بنظرات لم تكن عابرة، ثم أشعر به، مرتبكًا، كأنه يواجه موجَ أسئلة جارفة، ثم يقول في حيرة:

- هل أنتَ متيقن أننا لم نلتقِ قبلُ...؟! ألست من العائلة ؟!

- لم نلتق أبدًا سيدي... أنا على يقين...!

- عجبًا كأنني أعرفك... سبحان الله...!

تقطع عنا الحوار زوجته... وتقول في دهشة:

- سبحان الله، فيك شبه من سي المعاشي... كأنك أخوه...

- أريد أن أطلعكما على سبب مجيئي اليوم... عندها ستتبدَّد كل الحيرة...

يرد عليَّ الرجل الذي أظنه أبي:

- ليس الليلة... تعشَّ... وارتح... وغدًا نتحدث...

تقلَّبت في فراشي طوال الليل تقلُّب المحموم، لا عين غفت ولا بال هدأ ولا خاطر همد، الوساوس تعلن زمن قيظها في العقل والصدر... أَلِفت فراش زينة ووجودَها إلى جانبي، فهي متعة وهدنة للوجدان من الاعتصار، بحثتُ عن أدنى غفوة، تريحني من وطأة الأسئلة المحيرة والفرضيات الحارقة التي تقضُّ مضجعي، تختلط في خاطري المشاهد والمواقف، لا أكتفي باستعادة تفاصيل اليوم، بل أجنح بأفكاري نحو أحداث ظلَّت متوارية، موهمةً عقلي باندثارها، فإذا هي متأهِّبة... منتظِرة فجوةً في الروح، لتطفو على السطح قوية الرجع، مزلزلة كل سكينة، إلى عوالم قديمة أُبحِر دون إرادةٍ مني، تحضرني صورة الشيظمي، الفضاء البدوي هنا حفَّز ذاكرتي، وأيقظ ما ظننته تبخَّر وانتهى، ما زال إحساسي بالذنب يعصرني عصرًا، أكان لا بد من الاقتصاص من الرجل؟! كيف قبلتُ أن أكون جلَّادًا مثل كل الجلَّادين؟! يستعرُ الظن والشك في أتون عقلي، يلتهب... مُذوِّبًا جليد التجاهل... أترجَّى روحي أن تقبل معاناةَ زينة وأسرتها مبررًا يطفئ نار الإحساس بالألم... تمنَّيت في لحظةِ ضعفٍ نفسي تحت سياط الشك أن أهرع هاربًا، بعيدًا عن هذا البيت عائدًا إلى حياتي العادية... أشعر بأن في داخل كل إنسان جلَّادًا قاسيًا، متى توفرت الشروط خرج بسوطه وقسوته... فحتى المرأة الرحيمة، التي كنتُ قرةَ عينيها، والتي أحاطتني بالرعاية... كانت جلَّادًا من نوع آخر... جلدَتْ والدَيَّ الحقيقيَّيْن... بقسوة دون أدنى شفقةٍ...! فهل يشفع لها حبها لي ورعايتها، في ما اقترفته في حق هذين العجوزين...؟!

تلتقط أذني نباح الكلاب... فأشعر بالوحشة وسط عتمة الغرفة، إلا من كوة صغيرة، ترتجُّ دَفَّتاها بشدة من حين لآخر عند هبوب تيار ريح عابر، حاولتُ أن أُحكِم إغلاقَها، كانت الدفتان متراكبتَيْن، غيرَ متسقتين، لم ينفع معهما غير حجر أصم وجدته، فأعانني على تثبيتهما... كان للضوء الأخضر الغامز من هاتفي مفعول سحري... يُلطِّف وحدتي وإحساسي وشعوري بالقلق والوحشة... أتفقَّد الساعة... الثالثة صباحًا، وحدها...

الصراصير هذه الليلية والضفادع بأصواتها الحادة... اللحوحة... تقاسم الكلاب عويلها... الوسادة لا تلائم رقبتي، وحتى الفراش رغم وجود أكثر من بطانية وغطاء تحت ظهري، لا يُلائمني، من حين لآخر أضطرُّ لتغيير شكل الوسادة... ووضعها... عيناي مفتوحتان في الظلام... ترافقاني يقظة العقل والوجدان... لا تغفوان حتى يُنهي العقل معركةَ الحيرةِ والذهول... هيهات أن يغفو العقل والعينان هذه الليلة...

لا أعرف كم مرَّ من الوقت، فجأةً أسمع حركات في الحوش، خطوًا... كلامًا هامسًا وخافتًا استغفارًا... وتكبيرًا... أدنو من النافذة مرهِفًا السمع، ومسترِقًا البصر من شقوقها، يظهر الشيخ وزوجته، يتوجهان إلى المطبخ، في يد المرأة العجوز قنديل خجول الضوء، يتكلمان بصوت خافت، يبدو أنهما منخرطان في الوضوء، بعد لحظات يرتفع الأذان عاليًا، يشقُّ صمتَ الفجر، يفتح الباب... لا ينبح الكلب، ويختفي الشيخ في الغبش ثم يعم الصمت... ليكسره صياح الديكة، زقزقة متنوعة للطيور... رويدًا رويدًا... يعلن النهار عن سلطته، يتراجع الظلام مستسلمًا لسُنَّة التناوُب... فاسحًا الطريق للظلال... للنور... ينفذ الضوء بحذر إلى الغرفة، متسللًا من الشروخ، وشقوق دفتي الكوة المتهالكتين... تتناسل الظلال على الجدران والأفرشة... وتتراجع ظلال روحي القاتمة...

الساعة الثامنة صباحًا، على مائدة الفطور، بدا على الشيخ الاستياء، قال وهو يحُثُّني على الأكل:

- يوم عن يوم... يقلُّ المصلون... وخصوصًا عند صلاة الفجر...

خِفتُ أن يكون يُلمِّح إليَّ، فلُذتُ بالصمت، فردت عليه زوجته في شفقة:

- الحياة تغيَّرت... والناس رحلوا إلى المدينة... لم يبقَ إلا الشيوخ الذين أصابهم الضعف والهوان... وحتى الشباب تراهم أنهكوا في الأشغال الصعبة... ولم يستطيعوا الاستيقاظ للفجر...!

- صدقتِ... كثير من البيوت أصابها الخراب... ولكن طريق الله متعدِّدة... فمَن لَمْ يُسهِّل له الله الفجر... سهَّل الله الخير في باب آخر... كل يا بني... كل... والآن ما الأمر الذي جئتَ من أجله...؟!

رباه... الكلمات من جديد تهرب من لساني... وأشعر، بدوار يَلفُّني لفًّا، من أين أبدأ؟! وما هي التعابير التي تليق بهذا الموقف...؟!

- نعم... بني...!. أنا أنصتُّ...

استجمعتُ قواي، وقلت متلعثمًا:

- أنا ابنك...!

- نعم بُني كلكم أبنائي...!

- لا أنا أقصد من صُلبك...

توقف الشيخ عن الأكل، وجحدَتْه الزوجة بنظرة استفهام... قاسية... ثم أردفت:

- أنا ابنكما...!

حولت المرأة نظرتها من وجه الشيخ، بسرعة واصطبغت بذهول، بعدما كانت بها مسحة استنكار قاسية، وقالت في دهشة:

- يا ريت يا بني... لكن كيف؟!

وجدتُ صعوبةً في شرح حكاية الاختطاف، لأن أبي وأمي أجهشا بالبكاء، وهما من حين لآخر يحمدان الله، حتى أني رأيت أبي يسجد باكيًا، مُطيلًا، رغم أن ظهره يؤلمه... اختلط صوته بنحيب حادٍّ وهو يعانقني:

- نعم... عائشة... صدقَتْ رؤياكِ... لقد ولدتِ من جديد... ها هي نخلتُكِ...!!

اختلطت العواطف، وامتزج الفرح بالدموع، ظللنا على هذا الحال حتى أَذَّن الظهر، فوثب أبي واقفًا، ودلف ذاهبًا إلى المسجد وهو يردد:

- الحمد لله... الحمد لله...

اكتفيتُ أنا بوضع رأسي على فخذ أمي، فداهمتني رغبة قوية في النوم... فغفوتُ، وشعور سكينة يملأ صدري وأنا أحسُّ بيدها تداعب شعري، وتحمد الله.

26

عاد والدي من المسجد تسبقه نحنحته المعتادة... أبي يدخل منحنحًا، وإذا ما تناهَى إلى سمعه صوت ما في الطريق وهو خارج يعلن عن وجوده نحنحةً أو سعالًا، ويؤمِّن طريقه غاضًّا البصر مُطرِقًا الجبين، غير متجَسِّس ولا مسترِقٍ النظرَ ولا السمع... أينما حلَّ وارحل... كأنه يستأذن لدخول بيتٍ غير بيته، قال لي وهو يمدُّ لي يده للوقوف رغم ضعفه الذي بدا واضحًا من لهاثه، وكان الوقت بعد العصر بقليل:

- تعالَ نتمشى قليلًا... أُعرِّفك على الأرض والشجر والهواء والتراب الذي أنت منه... هذه الأرض مهما تُهت ستعرفها وتعرفك...!

انتفضتْ أمي في غضب محتشم وهي تؤنبه في أدب:

- دعه... لم يسترِحْ بعدُ... لم أشبع من رؤيته...!

يضحك والدي حتى تبدو نواجذه بصوت مشفق ويقول:

- يا عائشة...! ستشبعين من رؤيته حتى التخمة... دعيه يتعرَّف على أصله...!

لا تصمد أمي كثيرًا أمام إصراره، وتقول في استياء:

- عُودَا قبل المغرب... فالبرد قارس جدًّا في الخارج...!

يردُّ عليها أبي وهو يهز رأسه متأففًا، موافقًا في ضجر من عنادها... متمتمًا ومغمغمًا:

- نعم... إن شاء الله...

تُشيِّعنا، وهي قلقة، غير راضية بنظرات حنونة... ألتفت إليها قبل تجاوزي سور البيت، ألوِّح لها بيدي مبتسمًا علَّني أُبدِّد مخاوفها وأصيح:

- سنعود... يا أمي... لا تقلقي...
- انتبه لأبيك... فهو أحيانًا ينسى وهن العظام... وفعل الدهر...!
- يرمقها أبي بنظرة عتاب، ويقول:
- اصمتي... يا لحُمقِكُنَّ يا صويحبات يوسف...!!

دوار «الحرث» عبارة عن تجمُّعين سكنيين، متفرقَيْن فرعين من جَدٍّ واحد... فرع عبارة عن تجمع سكني عند مدخله، تؤدي إليه مباشرة الطريق الرملية المليئة بالحصى والحجارة، وتتوزع على جنباته بيوت من حجر وطين... مُسيَّجة بالحجر المنضَّد بطريقة عشوائية، كل دار يحيط بها سور قصير، يكاد يظهر ما وراءه، وبعض الدور يكتفي أصحابها بسياج من القصب أو نبات الصبار، خلفها تعيش الأُسَر وتُخزِّن حبوبها في حُفَر تسميها «المطمورة» وتُربِّي ماشيتها في حظائر عشوائية من الحجارة... تتعايش فيها الأبقار والأغنام والطيور، لا يخلو بيت من كلب شرس، قلَّما يربطونه... يربط التجمُّع الأول بالتجمع الثاني طريق ضيِّقة غير واطئة يحفُّها نبات الصبار الشوكي... بينما تفرَّقت دُورٌ أخرى منعزلة وسط الأراضي الجرداء العطشانة... لا أثر لعمود كهربائي. يستسقي القرويون هنا من آبار متفرِّقة، ماؤها مشاع بين الناس، لكن أبي قال إنها في نقصان مستمر، وبدأ ماؤها ينضُب وأكثرها غار ماؤها وانحسر، لا آثار للحرث ولا للبذر، الكل ينتظر ما ستجود به السماء من غيثٍ في الأيام الحاسمة المقبلة... من بعيدٍ انتصب في اختلافٍ وتفرُّد صارخ بيت كبير على ربوة... لا تُجاوره غير أطلال قلعة قديمة... كالقصر يطلُّ على الدوار في بذخ ورفاهية معمار وهندسة ومواد بناء... بطوابق متعدِّدة وشرفات من الزليج البلدي والمرمر والرخام المصقول... على ربوة شامخًا... لا هو من هذا الفرع ولا من ذاك، مبني بطريقة عمرانية حديثة، يحيط به سورٌ عالٍ من حجر صقيل ومنحوت ببراعة، تحفُّه أشجار الأرز وشجيرات للزينة متنوِّعة، وأَحوُض لأغراسٍ توزَّعت فيها متسقة في تناغم وجمال وأزهار مختلفة الألوان، ورود متعددة الأشكال، ونباتات جميلة، البوابة الكبيرة من خشب صقيل

مغطًّى بإطار حديدي فضي اللون لامع، تؤدِّي عبر ممرٍّ منضود بالحجارة الرقيقة الملساء إلي باب البناية التبغي الزيتي اللون، تحفُّه أشجار مثمرة... وأعمدة مشبَّكة لمصابيح بأغطية زجاجية كروية، حبل كهربائي يمرُّ من عمود خلف هذا البيت الكبير نحو مرافقه، سألت أبي:

- لمَن هذا البيت الكبير؟!

- سبحان المعطي المغني... هذا لولد قدور...

- ومن يكون ولد قدور هذا؟!

- ابن الشيخ قدور... شيخ أيام الاستعمار... سبحان الذي يضع سِرَّه حيث شاء...!!

يتكئ أبي على جذع شجرة سامقة، ثم يجلس تحت أغصانها ويتلمَّسها في فرح وبشاشة، ثم يشم أوراقها وأنا مستغرب من ذلك ويقول:

- انظر إلى هذه الشجرة... إنها قوية... سنديانة... تذكرني بأيام البلوط... أيام الجود والرخاء... هنا يا ولدي امتدَّت غابة البلوط منذ زمن لا نحصيه... ولا يحصيه آباؤنا... ثم تحوَّلت مع الوقت إلى خلاء ولم يتبقَّ غير هذه الشجرة... حلَّ غرباء ذات يوم من حيث لا ندري... قطعوا الأشجار... واختفوا...

- من كان يملكها...؟!

يتنهد أبي، يهشُّ بيده ذبابة عنيدة، يسرح بنظره في الأفق ويقول:

- إيه... يا أيام... كم تغيَّرت... يا بني... الغابة كانت للجميع... مثلها مثل الماء والنار والكلأ... حتى تغيرت الأحوال مع الأهواء... فتملَّك الناسُ على غير عادةٍ الماءَ والنارَ والشجرَ...

- والدي... هل ولد قدور فلاح... أم ماذا؟!

يبتسم والدي ابتسامة جميلة... هادئة... انفرجت لها أساريره، يستغفر الله في سكينة بهيَّة... ثم يقول:

- هو ابن قدور الشيخ الذي قتله الفدائيون... دخلوا عليه ليلًا... وأفرغوا فيه مسدساتهم... قالوا بوشعيب الدكالي من نفَّذ فيه حكم الإعدام... كان

قدور عميلًا للاستعمار... جلد الفدائيين... وتسبَّب في اعتقال وإعدام الكثيرين منهم...!

- وابنه هذا... يظهر أنه غني...

- طبعًا غني... والغني هو الله... بعد مقتل الشيخ قدور... اختفت أسرته... ثم عاد ابنه ذات يوم في عز الجفاف... وبقُدرة قادر أصبح يملك أجود الأراضي هنا... سمعت أنه كان في الخارج...!

- هل غناه من إرث؟!

- سبحان الوارث الذي لا مُذِل ولا مُعِز غيره... كل ما أعرف... أنه أنفق أموالًا كثيرة للعودة... والناس كانت في عَوَز وفقر مُدقِعَيْن... والجفاف هدَّهُم واستنزف مدخراتهم فباعوا الأرض... انظر هناك...

أسرح ببصري حيث أشار... أرى إسطبلات... ومخازن...!

- انظر... كثرة أملاكه... صار يُطعِم الجميع، تحكَّم في الأرزاق والمصائر... هو الآن من أكبر الفلاحين... يتاجر حتى في الأسمدة والبذور... يقرض الناس المال... لا يستطيعون الحياة بدونه، يمنحهم «الزريعة» يتحكَّم في البذور المنتقاة... والأدوية الزراعية... ويحرث لهم بجرَّاراته... ويحصدها بحصَّاداته إلى حين... ثم يأخذ نصيبه على الأرض قبل أن تُحمَل المحاصيل في الأكياس... ربما تتساءل: أين هي أرضي...؟! تعالَ... أريك...!

يدلف أبي وهو يتأوَّه، يكاد يتقوَّس ظهرُه من وعرة المنحدَر الحاد، يؤمِّن طريقَه بعصا طويلة، اتخذها أيضًا عكازًا، نصل وسط أرض واسعة... ممتدَّة على بضعة هكتارات...

- هذه أرضي... بل أرض الله وأنا مستخلَف فيها...

- هل بعتها...؟!

- لا... هل أنا مجنون...؟! أبوك يجوع ولا يبيع أرضه...!

- لكنها شبه قاحلة... لا زرع فيها ولا حتى هشيم...!

في حسرة... تصعد من أعماقه تنهيدة، يقول:

- أنا ضعيف يا بني... ولا أقوى على الزراعة... ولا أجد الماء الكافي لها...
- وهذه الأراضي الشاسعة التي لا يحدها البصر... وراء الربوة... لمن هي؟!
- هذا حديث آخريطول ويقصرولن ينتهي... ولد قدور وضع يده عليها... كانت مراعٍ لنا، مشاعًا لا تقبل القسمة، فيها الكلأ والماء حتى حازها بوثيقةٍ لا أعلم لها أصلًا... زعم أن ورثة رجل نصراني اسمه «لويس»... باعوها له... وهي في الأصل أرض «الجموع»... أي مراعي مشتركة بين القبيلة...!!
- وهل لويس هذا كان هنا في زمنٍ ما... ويملك الأرض؟!
- يا ولدي... وهل للغريب أرض في أرضنا...؟!
- ألم يُجابِه أحد ولد قدور؟!
- تُجابِه من؟! يا أحمق...! البحر... الطوفان، كيف تقاوم مَن في يده... السلطة... والمال... والجاه؟! نُمنّي أنفسنا بالدار الآخرة... أما هذه الدار فقد أخذوها منا... وما هي إلا متاع الغرور... دعهم يرتعوا في نعيمهم إلى حين... ويتقلَّبوا في خيراتها إلى أن يأتي وعد ربك... وما ربك بظلام للعباد... وقد تكون حكمته أن ترى وعده بأم عينيك في الدنيا قبل الآخرة...!

يتوقَّف عن الحديث يجاهد في الرؤية بمشقة الشيخ الذي ضعُف بصره، وخفَّ سمعه وهو ينظر بعيدًا تعلو وجهه ابتسامة عريضة... أشعر به في خفَّة فرح... تتكاثف على وجهه التجاعيد وتتكتل في الأسارير المفرجة، ثم يقول:

- ها هو عمك إبراهيم قادمًا...!

يتوقف فلاح كهل يُقبِّل رأس أبي ثم يخوض معه في الحديث:

- السلام عليكم... سمعت أنك يا عمي... استرجعت ابنك...

يرد أبي وقد تملكته خفة غريبة على وهن وضعف بدنيين في زهو:

- وعليكم السلام... نعم... الحمد لله... ها هو أمامك بلحمه وشحمه...!

يصافحني الرجل بعناق حارٍ وصادق تجلَّى من أساريره المنفرجة وبسمة عفوية عكست صدق شعور بالفرحة:

- مرحبًا بك بين أهلك... يا بني... أنت ابن رجل نضعه فوق رؤوسنا... فافخر به... على الأقل هو الوحيد الذي لم ينفع معه إغراء ولا ترهيب ولم يتملَّكْه طمع فحافَظَ على أرضه.

ثم يحول نظره إلى أبي ويقول مازحًا:

- متى الوليمة...؟!

- وقت ما شئتم... مرحبًا بك...

- بالعكس... نحن الذين علينا أن نحتفل بقدومه...

- قل لي... أين أنت ذاهب...؟!

- أسقي الزيتون... قبل أن ينحسر الماء في البئر كليًّا...

- بساتين ولد قدور خضراء، وشجره لا ينقطع عنه الماء... كيف لآباره لا تنضب والمطر لم يهطل منذ إبريل...؟!

- يا عمي...!. الرجل مد قنوات إلى النهر... يجلب الماء بمضخات قوية تعمل بلا توقف... ليلًا ونهارًا...!

- وآبار الناس؟!

- لم يعد فيها إلا ما يكفي الشرب... وبدأ ماؤها ينحسر... اللهم الطف بنا وأغثنا.

- آمين... اذهب أعانك الله...

ينصرف الرجل، يلتفت إلي أبي ويقول:

- هذا «سي» إبراهيم ولد الناجي رحمه الله...

- ومن هو سي الناجي؟!

- مجاهد... فدائي... أُعدِم أيام الحماية... ولم يستفِد أبناؤه من شيء... إبراهيم ابنه مع الأسف باع الأرض واحتفظ فقط بأشجار الزيتون... أتعلم يا بني... أن الذين باعوا أرضهم لم يبيعوها مباشرة لولد قدور؟!

- لم أفهم؟! أليس هو المالك؟!

- طبعًا... لكنه احتال عليهم...

- كيف يا والدي؟!

- إيه... لو علموا أن ولد قدور هو المشتري ما باعوا شبرًا من أرضهم ولو جاعوا...

- أأخفى هويته؟!

- هو محتالٌ بطبعه كأبيه... شرب المكر والخديعة منه، ولا بد أن الجشع يجري في دمه فقد ورثه من أبيه... الماكر كان يُرسل غيره... فيأتيهم كل مرة شخص مختلف ويعرض سعرًا عاليًا للأرض جد مُغرٍ... حتى قال الناس: «هؤلاء الذين يشترون أرضنا بهذا الثمن حمقَى» للأسف لم يدركوا أن لا ثمن للأرض... فولد قدور كان مستعدًّا لأداء الغالي والنفيس مقابل جذر يشدُّه إلى هنا... ظن الناس أن الأراضي توزَّعت على عدة أشخاص... حتى ظهر ولد قدور... وبنى داره فوق الربوة... على أطلال «قلعة» أبيه الشيخ، وبدأ يستغلُّ الأراضي... فعلم الناس أنه المالك الجديد الذي خرج من العدم... وأنه اكترَى أناسًا قاموا مقامه حتى يضع يده على كل الأراضي... كان يمنع الناس من العبور إلى أراضيهم عبر أراضيه الكثيرة المتفرّقِة ويقطع عنهم الماء... فبارت فِلاحتُهم فباعوا ونزحوا إلى مدن مختلفة... وأكثرهم سكنوا في مدن عشوائية... في مدن الصفيح... ويا ليته قنع بذلك...!!

- لم أفهم... ماذا يريد؟!

- يحلم بأن يصير واحدًا منا... لكن أرفع منا شأنًا ونعود إليه في كل صغيرة وكبيرة...

- أين كان قبل أن يحطَّ هنا...؟!

- سمعت أنه ساح في أرض الله سنوات... عاش في أكثر من بلد... خارج المغرب...!

أشعر برغبة ملحة في الدفء، قشعريرة برد نافذ تسري في جسدي، أفتقد نور مطبخ أمي، أسرح بنظري في الأفق البعيد... لا أثر للسحاب... سماء دجنبر صافية على غير عادتها، عدا قطع من السحاب الخفيف العقيم يسافر بلا حياة ولا حبور... أسراب الطيور العائدة على وكناتها تنشر أصواتًا مختلفة من حين لآخر... يلف المكانَ صمتُ الغروب الكئيب...

والدي منشغل بالتسبيح في هدوء لا أثر على وجهه لهذا التحوُّل من الضياء إلى العتمة، شيء ما يمنحه الدفء عدا جلبابه، فبرد الغروب لا يصدُّه غير دفء الروح والقلب... في الأفق تشكَّلت قطع من كبد ينزف في حزن، تتقدم الشمس برقبتها في انقياد نحو مقصلة الظلام... تختفي وراء الهضاب... يؤذن المؤذن صلاة المغرب، ينتفض أبي كمن أصيب بصعقة كهربائية، ثم يقول وهو يهرول:

- تأخَّرتُ عن الصلاة...!!

ثم يضيف مبتسمًا وقد كشف شعوري بالبرد من خلال حركاتي وفركي ليدي:

- ندفأ أنا وأنت إن شاء الله بالصلاة على النبي... ونصلي معًا إن شاء مُقلِّب القلوب في الحرم النبوي... والآن... اذهب لأمك المسكينة... فهي متعطشة لرُؤيتك في الدار... أعرفها صبرُها قليل... اذهب لعلها تروي تعطُّشها بك... سأعود بعد صلاة العشاء...

لم يحرجني أبي في عرضه... أن أصلي الصلاة معه وقد علم أنني قضيت في داره ليلة لم أقرب الماء وضوءًا ولم أرافقه للمسجد صلاةً... لم يكون لحوحًا... أكان يختبرني؟! يدلف فقط وهو يبتسم نحو المسجد، ثم يلتفتُ إليَّ يقول مبتسمًا:

- يا ولدي... أسرع إلى الوالدة... أسرع... ودفئ جسدك بنار «كانونها»... فدفء الأم لا يضاهيه في الدنيا، غير الرحمة الربانية، ولا دفءَ لك عند الله قبل دفء الأم...!

قالت أمي وهي تنعش نار الفرن الطيني بقطع دقيقة يابسة من الحطب وتُنضِج خبزًا على «مِنضَجَة» مقعَّرة من طين:

- أبوك لا تسعه الدنيا... فرحته كبيرة... بعد ولادتك تعرَّضتُ لنزيف حاد... بتروا رحمي... فأخذوا معه الحياة... أبوك مثلك كان وحيدَ أبويه، سبحان الله...! أما أنا... فلي إخوة يومًا ما ستتعرَّف عليهم... لأني لست من هنا... أنا من الشاوية... أبوك تزوجني حينما كان في البلدة يُعلِّم الصبيان

القرآن... أخوالك يتاجرون في قطعان الغنم... كسَّابون كبار... يرسلون لي من حين لآخر المال... أبوك لا يقبل ذلك... ولكني لا أنفِّذ ما يقول أحيانًا... فمالهم لي حق فيه معلوم... لم أطلب حقي أبدًا في تركة أبي... ولا أمي... لكن إخوتي يمنحوني أكثر من حقي...!

تضع أمامي رغيفًا طازجًا، تفوح منه رائحة زكية... شهية... تدسُّ فيه قطعة زبدة، وتستمرُّ في قرص بقية عجين وتبسيط القرص... ثم تقول:

- كل... سنتعشَّى حين يعود أبوك من الصلاة...

أمدُّ يدي إلى الرغيف، ساخنًا ألتهمه بشهية شَرِهة قلَّما تأتيني... مستشعرًا الدفء الذي سرى في جسدي، أقاوم النعاس لحظةً، وأنا أصغي لأمي تتحدَّث عن القبيلة وأشغالها وهمومها، بيدَ أن الغفوة كانت جارفة، لم تصمد لها عيناي... ثم أغفو في مطبخ أمي...!

27

أنتفض في ذُعر... مستيقظًا على صوت أمي الرقيق، وهي ترُجّني رجًّا خفيفًا... بلطف وعيناها على وجهي... تقول بصوتٍ خافتٍ حنون:

- انهض، يا بني...! عاد أبوك ومعه ضيوف... انهض... بسم الله عليك... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

أجاهد نفسي لطرد آثار النعاس الذي ما زال يداعب جفني وأمدِّد يدي من كسلٍ انتاب جسدي الذي شَلَّته الرغبة الطافحة في النعاس... كأني أعوض ليالي الأرق قبل أن أحل هنا... أُحملق لحظة في وجه أمي متثائبًا، أرى الوجه البشوش مبتسمًا، وأسمعها تتمتم وهي تُربِّت على رأسي بحنو:

- بسم الله عليك... بسم الله الرحمن الرحيم...

أوزِّع نظراتي على المكان كطفل صغير تم إيقاظه من النوم وسط الليل، ولا يدري ما يقع، أجدني ما زلت في المطبخ قُرب الفرن، وقد غطتني أمي ببطانية دافئة، أدلف صوب «المصرية» في كسل وخمول واضحين وأنا أتمطَّى، أتجاوز سورها الذي بُني من الطوب وأُلبِس طبقةً من الطين رقيقةً، صُبغت بالجير الناصع البياض... غرفة قلَّما تُفتح إلا في الأيام «الكبيرة» والمناسبات الخاصة، مفروشة بزرابي، رغم بساطتها كانت جميلة الألوان والأشكال، على حافة الجدران توزَّعت وسائد كبيرة مكسوة بثوب بني كوَبَر النمر، محشوَّة بالقطن... يُسمون هذه الغرفة أيضًا «القبة» رغم أن سقفها غير مقبَّب، ربما استمدت هذا الاسم من طبيعة دورها، ففيها يلتقي الضيوف، ويتم إكرامهم، فلا عجب أن توصف بالقبة، وكانت وراء السياج، من الجانب الغربي للبيت، ولها سور خاص بها بباب حديدي،

مبيَّضة جدرانها، مصبوغة النافذتين بلون أزرق فاتح، يفصل بين بابها وباب سورها، ساحة ضيقة مبلَّطة بالإسمنت الناعم، توسَّطتها ليمونة متوسطة الطول، أحيطت بحوض ترابي مربع الشكل، تفوح منه رائحة الحبق العبق...!

توزَّع الضيوف وكانوا بضعَ عشرات على الحجرة، ووُضعت أمام بعضهم عدَّة إعداد الشاي، ما إن دخلتُ وسلمتُ حتى ردوا السلام بشكل جماعي، ثم أفسحوا لي للجلوس قُرب أبي.

سُقط في يدي، وأنا أرى هذا الجمع الذي أتى بدون دعوة ولا سابق إشعار، حتى خِفت أن يُحرج أبي وأمي، يبدو أن جماعة منهم رافقت أبي إلى البيت مباشرةً من المسجد والباقي أتى زرافات وانتظروا حتى التحقوا بهم. كانوا جميعًا، يُصافحون أبي ولا يتوقَّفون عن عناقه وضمِّه وصياغة تعابير التهنئة المختلفة الكلمات المتحدة المعنى، ويحمدون الله أنني عدتُ إلى حضنه بعدما كنتُ في عِداد الموتى... بعد لحظات ارتفعَتْ زغاريد خارج البيت، وصلني صوت أمي وهي تفتح الباب مُرحِّبة، وقد اختلطت أصوات النساء وهن في جلبة وفرح...!

أشفقتُ على أمي، كيف ستلقَى هؤلاء الضيوف، وليس في مطبخها إلا خبز طازج، ومَرَق هيَّأتْه من لحم الدجاج...

تناديني أمي وهي تلحُّ:

- يا ولدي...! تعالَ... النساء يرغبن في التعرف عليك...!

أحملق في الجمع خجلًا، ويُربِكني الحياء، كيف أدخل على النساء؟!

كأن أبي التقط ما يدور في عقلي، يحثني على الخروج إليهن وهم يبتسم:

- اخرج يا بني... فهن من دمك... وإن تفرَّعت البطون والأنسال... اخرج إليهن...!

ينخرط الكل في الضحك، وهم يكتشفون ارتباكي، ألِجُ غرفةً أخرى عادية، جلست فيها النساء، خجلًا لم أستطع تفرُّسَهن، وكنَّ من مختلف الأعمار إن صدق حدسي من نبرة أصواتهن. أجمعن أنني ابن حلال، أُشبِه

أبي، بل إنني نسخة منه، وقالت إحداهن إنها لو صادفتني في مكانٍ ما لتعرَّفَتْ عليَّ بسهولة وعلمَتْ أن هذا الفرع من هذه الشجرة، وكِلْنَ لحبيبة شتمًا، وتمنَّين لها الجحيم، آلمني الأمر، فبدا ذلك على وجهي، فقالت أمي معاتبة:

- الله هو المحاسب... المرأة ماتت... وهي عند القاضي الكبير... فلا تقُلْنَ فيها سوءًا... ولا يغِبْ عن تفكيركن أنها ربَّتْه وأطعمَتْه... حضنَتْه كأمٍّ... والله أعلم بها... فلا تكُنَّ قاسياتٍ على المرأة... غفر الله لها... من جهتي أنا سامحتها...!

قبل العودة إلى «القبة» عرَّجتُ على المطبخ طلبًا للماء، فهالني عدد الصحون الكبيرة و«القصاع» الطينية، المليئة بأشكال الطعام، من كسكس ومرق وأرغفة كثيرة للخبز، لحظتَها اكتشفتُ سبب هدوء أبي وعدم اضطراب أمي من مباغتة هذا الجمع لهما، لقد حضروا مهنئين، لكنهم مزوَّدين بالطعام والشراب، حتى لا يُرهقوا والدي، وكانت هذه هي عادتُهم، وهالني قوالب السكر المركونة في الحوش، كانت عادتهم أن يتهادوا في المناسبات بالسكر لتحلو الأيام، وليطردوا مرارة الدهر...!!

صوت هدير سيارة، منبعث من خارج السور يقطع عن الجمع حديثهم، ويُشتِّت انتباه الجميع، تسقط أضواؤها الكاشفة وراء الجدران، يرتفع بوق سيارة عاليًا... ارتفع نباح الكلب، أحدهم عرف الزائر من زعيق البوق... قال:

- هذا ولد... قدور... أي ريح أتت به في هذه الليلة؟!

تغيَّر وجه الجمع، وتباينت ردود فِعلِهم بين الاستياء والمجاملة فخيَّم على بعضهم الوجوم، عدا بعض الأفراد... استقام أبي واقفًا يسنده أحدهم، ثم اتجه نحو الباب الخارجي، صمت الجميع، صوت ولد قدور جهوري وفيه نبرة الغطرسة:

- ما هذا.. أ«سي المعاشي»؟! تحتفلون وحدكم... ألستُ منكم؟!

يُحرِجه أبي بكبرياء المؤمن ويقول:

- قل السلام أولًا...!

- اسمحْ لي... السلام عليكم...!

- ادخل... مرحبًا بك...

ضوء مصباح يدوي يتأرجَح، ثم يضيء لهما الطريق «نحو القبة»... أتلمَّس مصدر الضوء، يظهر لي ولد قدور في بُرنسه الأزرق الليلي، يخطو بخطوات متثاقلة في زهوٍ، تكاد قدماه لا تلمسان الأرض، وعلى يمينه شخص آخر، يحمل المصباح اليدوي، لم أستطع تمييزه من بعيد، وشعاع المصباح أعماني، ما إن يَلِج ولد قدور حتى يقف البعض ويلتزم آخرون الصمت دون أن يَبرحوا أماكنهم، الذين انتصبوا واقفين... هرعوا نحوه مُسلِّمين... مُحيِّين بحرارةٍ في تزلُّف واضح، بعضهم قبَّل كتفه، وآخرون رأسَه، والذين ظلُّوا في أماكنهم في كبرياء غريب ومنهم المختار ولد سي الناجي، رمقهم بنظرةٍ قاسيةٍ، فيها الوعيد والغضب، أفسح له المجلس فجلس في قلبه، استوى ومدَّ رجليه خلافًا للباقين الذين جلسوا مقرفصين، ثم أشعل سيجارًا، أمام امتعاض أبي الذي قال له في حنق بارز:

- سي ولد قدور... لا تدخن هنا... الدخان يخنقنا... وربما يطرد الملائكة عن جمعنا هذا...!

يرمقه ولد قدور بنظرة اصطبغت بلمسة سخريةٍ وتعالٍ، ثم قال وهو يقهقه:

- أولًا... ناديني باسمي... كم من مرة قلت لكم لا تنادوني باسم ولد قدور؟! أنا اسمي... يعقوب... يا عباد الله!

ثم يضيف متهكِّمًا... ساخرًا... وهو يكنس الفضاء بنظراته، مبتسمًا ابتسامةً باهتةً صفراء:

- وأين الملائكة... يا المعاشي...؟! لا أرى هنا إلا الشياطين... يوسوسون في صدور الناس... وينشرون الفتنة...!

انخرط البعض في الضحك، حتى سالت دموعهم، بينما هزَّ أبي رأسَه مستاءً منه، وتبادلت الجماعة التي لم تقف له النظرات، حتى خشيتُ

عليه من بطشهم إذ شرارة الغضب تطايرت من أعينهم، وانقبضت أسارير وجوهم، لولا أن أبي قال:

- العشاء... يا سادة... لنغسل أيادينا...

تناوب الرجال على طستَيِ المغسلتَيْن الفضيتَيْن، يصبُّ لهم الماءَ فِتيانٌ من إبريق ماء نحاسي، ويتناوبون على منديلَيْ مسح في صمت، تفرَّق الجمع على موائد دائرية... بينما اعتذر يعقوب «ولد قدور» عن الأكل متحججًا بحميَة يتبعها لأمراضه المزمنة المتعدِّدة... وجلس بعيدًا ينفث دخان سيجاره في الهواء، حتى أثار شهيتي للتدخين...

لم أفوِّت الفرصة خلال الأكل لاكتشافه، استرقتُ نظرات متقطِّعة نحوه، أتفحَّص وجه هذا الرجل الذي صار بين ليلة وضحاها أكبر مالك للأراضي ولا يخلو بيت هنا مدين له، بدا شاحبًا... عليلًا... في بِنيته الهزيلة... كانت بشرته سمراء خلافًا للسِّحنة القمحيَّة السائدة هنا، ووجهه نحيلًا بارزَ العظام، وشفتان زرقاوين وعيناه ضيقتين... بجيوب زرقاء مرتخية... اكتفى برشف الشاي بلا سُكر... وهو يتابع الجماعة وهي منشغلة بالأكل، ثم أعلن رغبتَه في الذهاب فجأةً، فمد يده إلى مرافقه الضخم الجثة الذي تخلَّى عن الطعام فورًا، وساعده على الوقوف. قال وهو ينظر بعيدًا في تكبُّر لا يُقوِّضه غير ضعف جسده الذي يحرمه من الوقوف منتصب القامة:

- على كل حال... مبروك عودة الابن سي العياشي... رغم أنني مستاء منكم... تولِمون لبعضكم بعضًا... دون إخباري... المهم... الأيام بيننا... فأنا أعرف أعدائي من أول نظرة.

ينظر إليَّ وهو يتلفظ بالكلام الملغز، ثم يضيف:

- دعنا نرَكَ يا ولدي... بيتي مفتوح لك في أي لحظة...!

غادَرَ كما أتَى... مخلِّفًا التوتر والغضب في بعض النفوس، وشرخًا بين الحاضرين، تُشيِّعه نظرات حانقة وأخرى متزلِّفة... قال ولد الناجي وهو يغسل يديه من الإبريق في غضب:

- هذا الكلب يومًا ما سأقتله...!

حدجه أبي بنظرة عتاب وقال في استياء:

- ماذا تقول يا ابن الناجي؟! تقتل مَن؟! ابن قدور؟! أجننت؟! دعه للزمان... لله...!

يعود ولد الناجي إلى مكانه، فاسحًا لنفسه المجلس بغضب وخشونة بكلتا يديه، ويقول «مُزمجرًا»:

- اغتصَبَ أراضينا... واليوم يريد أن يكون جزءًا منا... في الحلم ربما... والله لا يحبُّ العبدَ الضعيف...

يردُّ أبي في استياء:

- ولا يحبُّ الله القصاص بدون بيِّنة... ولا الحدود بالشبهات... وفوَّض ذلك لأولياء الأمر لا للناس...!

أحد الذين تزلَّفوا يعقوب، وقبَّلوا كتفه، قال خبث:

- كيف اغتصبها يا ولد الناجي... وهو اشتراها بماله منكم...؟!

- استغلَّ ضعفنا... وسنوات الجفاف... واحتال علينا... ولم نكن نعلم أنه المشتري حين بِعنَا له أرضنا... احتال علينا الخائن ابن الخائن...!

يقول أبي وهو يتمضمض من أثر الطعام في فمه:

- صلُّوا على النبي...

تستجيب له الجماعة بعفوية، فتصلي على النبي، ثم يستأنف حديثه:

- الأرض في قلوبكم... وإن كانت في يده... ما يربطنا بها ليس وثيقةً أو شهادة... ما يربطنا بها الدم... العقل... الروح... العرق الذي سال فيها لأجدادنا ليرويها... والدماء التي اختلطت بالتراب لتصونها... وجذورنا عميقة فيها... لا تيأسوا... لكن غيِّروا من أمركم... فقد ساد بينكم الطمع... وتحكَّم فيكم الجشع... وصِرتم أعداءً لبعضكم حتى نسيتم أرضكم... ما كان ليأخذ منكم أرض «الجماعة» لو كنتم على قلب واحد... تشتَّتَتْ كلمتكم... فتشتَّتَتْ هِمَّتكم... تفرَّقت بكم الأهواء فسَهُل افتراسكم... يا حمقى... لقد جعتُ... وعشتُ أيامًا سوداء... جُلِدت ولم أبع أرضي... وما حزَّ أكثر في قلبي إلا أن يتحوَّل الأشراف إلى عبيد له في ضياعه... ويصير

السافل الحقير آمرًا واعظًا... ضيَّعتُم أرضكم بفُرقتكم... وعدم صبركم... واليوم تريدون أن تُضيِّعوا كرامتكم وتتزلَّفوا يعقوب...!!

شعر بعضٌ من الجمع بالإحراج، فتبادلوا النظرات في ذهول، حتى انتفض من بينهم رجل وقال في ضعف:

- يا أخي... إن كنتَ تقصد طريقة سلامنا له... فأنت أعلم بحالنا... فنحن مُجبَرون لا مُخيَّرون... لو قطع عنا البذور... والأسمدة... والماء... سنجوع وأبناؤنا... ومنا من لا عمل له غير مزارعه وضياعه... فهل نجحد النعمة، ونعض اليد التي مُدَّت إلينا؟!

يرد عليه والدي وقد تملَّكه الغضب وهو ينظر إليه نظرة قسوة:

- اسكُت يا «ولد فاطنة»... والله ما أخطؤوا حين نادوك باسم أمك... ولو أني أعرف أباك الصالح الذي مات كمدًا على أرضه هذا ما قلت لكم... لا تستطيعون الصبر على جوع... والجلد على فقر... فما تبقى لكم غير كرامتكم لتُقايضوها مُقابل الخبز...؟! حسبي الله ونِعم الوكيل... أليس هذا من علامات آخر الزمان...؟! عودوا إلى الطريق المستقيم... ففيه الخير والنعيم...

ينتفض «ولد الناجي»، كأن كلام أبي لم يُبرِّد النار التي تحرقه من الداخل، ويقول في حنق:

- ما سهَّل على يعقوب الخسيس هذا غير هذا الإرجاء المستمر... لو قتلتُه لأرحتُكم منه... وأنت يا «ولد فاطنة»... تعلَّم السكوت حين يتكلَّم الرجال...

تركب «ولد فاطنة» عزة نفس، فينهض غاضبًا وهو يغمغم:

- سي العياشي... ما ظننتُ أني سأهان في بيتك...!

ينصرف في خِفَّة وقد ركبه غضب جارف، وهو يتعثَّر في جلبابه من شدَّة الاضطراب يناديه أبي:

- تعالَ... تعالَ... العن الشيطان...

يشيعه «ولد الناجي» بنظرة ساخرة، ويقول:

- دعه يذهب عند سيده...!

يعمُّ صمتٌ الحجرةَ، ثم يكسر صمتَها والدي وهو يردّد:

- الشيطان وجد طريقًا بينكم ليشقَّ صفَّكم... آه... لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...

- لم يكن لي رأي بينهم، لا أحد طلب ذلك، حتى وإن كانت لي وجهة نظر... لا طاقة لي بهذا السجال... أتابع فقط ما يقع في صمت ودهشة، ويبدو لي ولد الناجي صورةً أخرى لزينة لكن معدَّلة، يُغضِبه الظلم، تركبه عصبية و«حمية». أشعر لحظةً، أن يعقوب ولد قدور وجهٌ آخر لسليمان جبار، امتداد له أو هُما معًا امتداد لسلطة خفية، غاشية... كاسحة... عمياء... كرهتُ يعقوب... كما كرهتُ «ولد فاطنة»... وأحببت «ولد الناجي»... أما أبي... فقد صرتُ أقدِّسُه منذ اللحظة...!

يستقيم ولد الناجي واقفًا منتصب القامة، في عينيه يبرق الغضب لكنه ممزوج بعِزَّة نفس وإباء... يُطرِق الجبين وهو يُودِّع أبي:

- «اسمح لي»... مرة أخرى مرحبًا بك سي عزيز بين أهلك... لا تؤاخذني... فقد جرفني تيار الغضب...

أرد عليه... بحركة من رأسي:

- لا عليك... أفهمك...!

قبل أن يختفي عن أنظارنا وراء «حلقة» القبة، يرفع رأسه، يوزع النظرات الحانقة على الجمع ويقول وفي عينيه عصف الغضب وقد تجلَّى لهبًا تجاوبت معه جبهته فانكمشت:

- أما الخونة... «البياعة» فلي معهم شأنٌ آخر... وليذهبوا إلى سيدهم وليفرغوا له القِدْروما فيها... كالعادة، ويخبروه بكل شيء... قولوا له... إني أكرهه... أكره اليوم الذي جاء فيه إلى هنا...!

يهرول في خفة، تكاد قدمه تزل على العتبة... يختفي خارج السور والكلُّ في ذهول عدا أبي الذي قال:

- ابن الناجي فيه حميَّة الناجي... اللهم رُدَّه إلى طريقك... يا رب... فالدم لا يحلُّ المشاكل... إن سال... سالت له دماء غزيرة... لا نهايةَ لنزيفها...!

غيَّر الجمع بوصلة الحديث... وتجاهلوا ما حدث قبلُ وعادوا إليَّ يفتشون في حياتي تفتيشًا دقيقًا، في فضول جارفٍ، فأخبرتهم بأدق التفاصيل وهم ينصتون في عجب واستغراب وتعاطف من حين لآخر، علَّني أروي هذا التعطش الغريب عندهم في معرفة حياتي... من الطفولة إلى العمل... بيدَ أنني احتفظت بأسرار قد تُربِكهم... لم أخبرهم سبب اعتقالي... لم أكشف لهم سبب طلاقي، ولا حياتي الحالية مع زينة... كانت المناسبة أيضًا فرصة لأبي ليعرف تفاصيل عن حياتي لم يسألني عنها...!

8

أزِفَ موعد العودة... واشتقتُ إلى زينة اشتياق الرضيع إلى صدر أمه، وطالني صداع قويٌّ من جراء هذا الفطام القسري، الانقطاع عن الخمر، مما عكَّر عليَّ صفو الأيام هنا، وأرَّقني أرقًا شديدًا، وكنت قد وجدت صعوبة كبيرة في ممارسة شرهي في التدخين، كما استعضتُ عن فناجين القهوة المقطرة، بقهوة أمي المعطرة الخفيفة، وكلَّما انتابتني رغبة في التدخين... أختفي بعيدًا عن الأنظار لأدخِّن. وليلًا... فضحتُ نفسي أكثر من مرة، لكن أبي لاذ بالصمت، إلا أمي التي قالت لي ذات صباح: «لا تخجل من شيء يا ولدي... نحن نعرف عادات أبناء المدن... وأبوك يفهمك»!

شغل بال أبي غياب ولد الناجي عن المسجد، فرجَّح أنه مريض حتى جاءت الأخبار تُبدِّد الشك وتعوضه باليقين على لسان أمي التي أخبرتها زوجته أنه سليم معافًى في بدنه وعقله... ويأكل كالحصان وبصحَّة جيدة، فارتاب أبي في الأمر، ولم يجد لغيابه سببًا مقنعًا... فلا يمنع الناس هنا من المسجد إلا المطر الشديد، أو المرض المُقعِد، أو السفر البعيد؛ حيث يجوز القَصْر في الصلاة، وأثارني ما أثاره حين علمتُ أنه ما تخلف عن صلاةٍ أو قراءةِ «الحزب» بعد صلاة المغرب، وكان قوَّامًا... صوَّامًا. وشاع خبرٌ في الدوار أنه لزم بيته منذ تلك الليلة منعزلًا عمَّا سماه الفتنة... وألزم زوجتَه وبنتَيْه بالحجاب...!

تلهَّى الناس في البداية عن خبر ولد الناجي بالسُّحُب التي عادت لتعانق الأرض المشتاقة، فعاد الأمل إلى قلوب الناس، بعد أن تلبَّدت السماء بالمُزْن الثقيل، وهطلت الأمطار لمدة أيام، وسقت الأرض والشجر، وسال الماء

قويًّا في الشِّعاب، وغسل القلوب والدور، وامتلأت الآباروالوديان... وانتظر الفلاحون الصحوَ ليُقلِّبوا الأرض قلبًا وحرثًا قبل أن يبذروا ويزرعوا...

كانت آخرَ ليلة من سنة 2002، بعد صلاة العشاء، قصدتُ رفقة والدي بيتَ ولد الناجي، في التجمع السكني عند مدخل الدوار، كان بيتًا بسيطًا من الطوب، مُسيَّجًا بالقصب والحسك والصبار الشوكي... من غرفتَيْن ومطبخ، وحظيرة عشوائية من حجارة وجذوع الشجر، وسقف من قصدير قديم مثبت بحجارة ثقيلة على السطح... أجلسنا في غرفة مسقَّفة من خشب الأشجاروقِطَع الخيزران، على الجدارصورة قديمة للملك محمد الخامس، وأخرى لأبيه الناجي... باهتة، مستخرَجَة ومكبَّرة حتمًا عن أخرى بالأبيض والأسود.

هالني تغيُّر وجه الرجل بهذه السرعة... أطلق لحيتَه... وعفا عن شاربه، ووجه وجهه من شدة صارت فيه فجأة، وتغيَّرت فواصل كلامه فغدت استغفارًا أو صلاةً على النبي، لم تأتِ بنتاه ولا زوجته للسلام علينا على عادة أهل الدوار الذي لا يَحجُبون النساء عن الرجال، إذ يُعَد الكل أسرةً واحدةً... صدم أبي وهو يسأل عن البنات والزوجة بردِّ ولد الناجي:

- البنتين وزوجتي... احتجبنَ عن غير المَحرَم...

تبدو على أبي تعابير الصدمة والحرج، فيقول في حسرة:

- أصرنا غرباء يا ولد الناجي...؟!

- الدين... هو الدين...!

ثم أردف وما زالت القسوة طاغيةً على التقاسيم والكلمات:

- هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم!

أصلي وأبي على الرسول فور ذِكر اسمه، نظرة استياء يرمق بها ولد الناجي... يصمت حينًا حتى ظننتُ أنه سينفجر غضبًا، لكن يبدو أنه سيطر على حنقه، تعود الأسارير إلى الانفراج، وبسمة مُطمئِنة تضيء الوجه والقلب، ويقول:

- يا ولدي... افعل ما تراه في صالح أسرتك... لكن لا تشُدَّ وتقْسُ على نفسك وعليهن... فما شدَّ أحد على الدين إلا اشتدَّ عليه... التدرُّج... يا ولدي... التدرُّج... ما علينا الآن... هذا ولدي جاء ليطمئن عليك وبالمناسبة يودعك... فغدًا إن شاء الله سيعود إلى الدار البيضاء...

يفرج عن أساريره فيعطل وجومَه الغريب لحظة، ثم يقول:

- «الله يخليه»... ويحفظه من شر هذا الزمن «الأعوج»... أوصيك بالصلاة يا عزيز... وبدينك... فلن نغير شيئًا من هذا الظلم الغاشم إلا بالعودة إلى الله... وبالله سننتصر على الجور والبغي...!

بدَتْ على أبي علامات الذهول وهو يكتشف شخصًا آخر فقال:

- نعم يا بني... وبالرحمة والغفران والصفح...

انتفض ولد الناجي وعادت علامات الغضب والوجوم تحفر على الوجه شدَّة وقسوة وقال:

- يا عمي... العين بالعين والبادئ أظلم... والله لا يحب العبد الضعيف... والبلاد امتلأت بالكفر...!

أما أنا فلا أودُّ الانخراط في هذا الحديث، لكن يبدو لي أن ولد الناجي يقودُه غضبه وحِقدُه إلى منطقة جد ملتهبة... فأقول في أدب:

- لن أفتي في الدين... ولكن الإسلام دين العدل والسلام... وما جاء نبينا إلا رحمةً للناس... والمغرب بلد الإسلام وقلعته في اعتداله ووسطيته...!

ينظر إليَّ نظرة قاسية، ثم يردف:

- لا أفهم كلامك هذا... اعتدال... وسطية... الإسلام هو الإسلام واحد لا غير... وهؤلاء الذين عاثوا فسادًا في الأرض... ونهبوا الخيرات... وعطلوا العبادات... ماذا تسميهم...؟!

- أحسبهم مذنبين... والمؤمن خطَّاء... وهم منا ومن دار الإسلام ما داموا لم يفعلوا ما يخرجهم من المِلَّة... والبلد ليس فيه كفَّار... ولا أحد عطَّل العبادات...!

- هل أنت أعمى...؟! انظر إلى حال البلد... فسوق... دعارة... وسفور... وتبرُّج... وخمرة... وأكل مال الناس بالباطل، أينما جُلْتَ تُصدَم بالخروج عن الدين...!

تثير انتباهي... كتب متراكمة تبدو من تجليدها أنها دينية، وشرائط تسجيل... يخلصني والدي من هذا النقاش ويقول:

- ما خلا زمن من ذلك... ونحن بلد الإسلام... والأولياء... فكما نرى الفسق والخمور... نرى الجوامع تمتلئ يومًا عن يوم بالمصلين ويزداد عددهم بالشباب والتائبين، ويرتفع في مآذننا وصوامعنا الأذان خمس مرات... ويُقرأ القرآن يوميًّا في المساجد... وفوق هذا حتى لو كانوا نصارى أو يهودًا أو لا يؤمنون بتاتًا بأي عقيدة أو دين... لا إكراه في الدين... فأين تعطيل الشعائر والعبادات يا بُني؟!

- يا عمي...! الإيمان سلوك وعمل وحياة أيضًا... فهل تعد ولد قدور الخائن مؤمنًا؟!

- ولمَ لا... وهو يصلي معنا من حين لآخر... ويصوم رمضان... وحجَّ بيت الله...؟! ولسنا أوصياء على النيَّات وما يختلج في صدور الناس...!

- وخيانة أبيه للوطن...

- لا تَزِر يا ولدي وازرةٌ وِزرَ أخرى... لا يؤخَذ الأبناءُ بذنوب ولا أخطاء آبائهم... فهل غَضِبَ الله من إبراهيم عليه السلام لعَنَتِ وكُفْر أبيه آزر...؟! وقدور وإن خان وطنَه وأهله وعشيرته لا تُخرجه خيانته من المِلَّة... ما دام لم يجهر بالكفر ولم يأتِ منه ما يُخرجه من رحمة الله... ومن أدراك أنتَ بحكمة الله؟! فقد تتأخر التوبة لكنها تأتي قبل الموت فيَقبَلها الله... ويصير الكافر من أهل الجنة، وقد ينقلب قلب المؤمن الورع في آخر أيامه... يبتليه الله ويمتحنه... فيجحد ويكفر، فيصير من أهل النار... سبحان مُقلِّب القلوب... وحده الحَكَم والقاضي...

أقاطعهما وقد احتدَّ النقاش:

- مَن له الحق في نعت هذا وذاك بالكافر...؟! لو تُرِكت الأمور فوضَى الحبلُ على الغاربِ... لكَفَّر الغريمُ غريمَه... ولصار التكفير وسيلةَ انتقامٍ بيد الناس يصفون بها الأعداء والخصوم... وهذا يُذكرني بزمن مطاردة الساحرات ومحاكم التفتيش...!

حملَقَا معًا في، كأنهما لم يفهما قصدي، قال أبي في تواضع:

- لم أفهم...!!

وسانده ابن الناجي وقال:

- ما علاقة الموضوع بالساحرات...؟!

- سأوضِّح لكما الأمر... محاكم التفتيش... هي محاكم دينية... نصبَتْها الكنسية البابوية... تُكفِّر وتُعذِّب مَن تشاء، وعانَى من ظلمها المسلمون بعد سقوط الأندلس... أما الساحرات... ففي مرحلةٍ ما تكلَّف القساوسة بأمرٍ من البابا باقتفاء النساء المشكوك في تعاطيهن السحر، فأُحرقت عدة نساء ظلمًا... بتهمة السحر... فانتشرت الوشايات المُغرضة... والوقيعة...!

صبَّ ولد الناجي، الشاي ومدَّ كأسًا لي وقال في استغراب:

- ومَن البابا؟!

أبتسم، وأنا أعي مدى سطحية معلومات ابن الناجي، فأغيِّر الحوار قائلًا:

- نحن دار إسلام يا إبراهيم...!. ولا يجوز فيها الجهاد...!

- الجهاد ضد الظلم... والفسق... فرض عين...!

- ماذا تقول؟! الجهاد كما تعلَّمت لا يكون إلا تحتَ راية سلطان... وبتحريض من ولي الأمر...!

يقاطعنا أبي مستاءً من المآل الذي أخذه الحديث:

- هذا كلام لا يدخل العقل... الناس ترتكب المعاصي... ولكنها تظلُّ مسلمة... ولا أحد له الحق في إخراج الناس من المِلَّة... أمْرُهم بيَدِ الله، إن شاء غفر وإن شاء انتقم...!

- ويعقوب... هل نتركه يفعل فينا ما شاء حتى يوم القيامة...؟!

ارتبك أبي فهزَّ يده في استياء وقال:

- وهل تريد أن تقيم عليه حدًّا ليس من حدود الله...؟!

- وما حدُّ المغتصب... الظالم...؟!

- حدُّه ينظر فيه أولياء الأمر لا العامَّة... وإلا تحوَّلنا إلى همج...!

وأنا منبهر بكلام أبي أستحضر حديثًا له، فقد سبق له كما حكى لي ذات ليلة عن مرحلة من حياته وصفها بحماس الشباب، أن خرج مع جماعة للدعوة، في سبيل الله، يُرشدون الناس في القرى إلى الطريق المستقيم، ويُعلمونهم الشعائر والعبادات... فأدركتُ أن علمه الديني جيِّد، فلم يكن من حُفَّاظ القرآن البسطاء الذين لا يَعُون ما يقرؤون بل تعلَّم اللغة والفقه في زاوية سيد محمد بن علي.

يضيف أبي وهو ينظر إلى ابن الناجي:

- يا ولدي... ما الذي غيَّرك ونزع من قلبك الرحمة...؟! الإسلام دين رحمة...!

- يعقوب هذا الذي أخذ كل شيء منَّا... الذي لا يستحق الرحمة... الرحمة لمن يستحقها... الرحمة بين المؤمنين... فهل ترحَمُ مَن غصب أرضك... وجوَّع أبناءك؟!

يقول أبي وهو يرشف كأس الشاي:

- يا بني... لا تقسُ على نفسك... أحبُّ فيك هذا الورع... ولكني قلق... يُقلقني غضبك... فالغضب عمَاء... والعماء غشاوة للعقل والقلب... دعنا من هذا لِمَ لَمْ تعُدْ تأتي للمسجد؟!

- لا أصلي مع المنافقين... لا أقصدكَ أنت... حاشا... معاذ الله... عذرًا... بل هؤلاء الذين يتملقون ولد قدور... أمثال ولد فاطنة...!

- يا بني...! منع النبي أصحابَه من قتل المنافق عبد الله بن أُبَي... وصلَّى عليه حين مات... ونِفاقُه كان كفرًا بيِّنًا... يتظاهر بالإسلام وهو كافر يَكيد للمسلمين... أما ولد فاطنة... فهو مسلم مؤمن... يصلي ويصوم... وطيب... والله طيب... ربما ضعفُه وحاجتُه أعمَتْه عن بعض الحقائق

لكنه ليس منافقًا... فلا تُخرِجه بدون حجة من الدين... فهذا ظلم له وللإسلام...!

أضع حدًّا لهذا النقاش الذي بدأ يحتدم، وقد بدا لي ولد الناجي متصلِّبًا لا يلين... مغلقًا كل نوافذ الاختلاف، في عناد غريب... فأقول منتصبًا واقفًا:

- المهم... إلى اللقاء سي إبراهيم... فكِّر جيدًا... وعُدْ لأهلك... فلا يخرج من الجماعة إلا هالك أو صاحب بدعة وفتنة!

يُصوِّب الغاضب نظرَه نحو أبي ويقول وهو يضرب كفَّه بكفه من الاستياء والحنق:

- أرأيتَ ابنك... يا سي العياشي...؟! ليس أقل تفقُّهًا منك... يريد أن يُعلِّمني ابن المدينة ديني...

- لا... حاشا... أنت أفقَه مني... فقط الدين النصيحة...!!

يردُّ عليَّ في جفاء واستياء فاجآني كأن علاقتنا أصيبت توًّا بشرخ عميق:

- إلى اللقاء... لا تنسَ دينَك... دينَك...!!

في طريق العودة... بلَّل جسدَيْنا رذاذ مطر، وتلفح وجهينا نسائم باردة، يُطرِق أبي الجبين، يصمتُ طول الطريق، أسمع لهاثه، وتنفُّسَه السريع ونحن نصعد منحدَرًا نحو البيت، كأن أمرًا ما يشغل باله، قبل أن آوي إلى الفراش، قال لي في حزن:

- يا بني ربما أضعنا ولد الناجي... ضاع منا ولد الناجي... أعرف هذه الطريق الذي يريد السير فيها... والله ما سلكها أحد إلا خسر الدنيا والآخرة، يحسب نفسه يصلح وهو يفسد ولكن لا يعلم...!!

يعتكف أبي ما تبقى من الليلة في غرفته وقد هاله ما سمع من ولد الناجي وأقلَقَه... وكأني به تلك الليلة لم ينَمْ... قام الليل كلَّه، إذ ظللت ألتقط لحظات من عبادته الليلية وقيامه...!

في الصباح، يُقلُّني ولد فاطنة بعربته الخشبية التي يجرها حصان عجوز إلى قرية أولاد الصياد. نصادف في الطريق سيارة «بيكوب» محمَّلة بأمتعة، وأثاث منزلي، ألمح قرب السائق، ولد الناجي، بين الأثاث تفرَّقت بنتاه

وزوجته وقد ضَربنَ على أنفسهن خُمُرًا سوداء قاتمة... غطَّتْ وجوههنَّ تمامًا إلا من فتحات لا تكاد تُظهِر عيونهن... يحدجني بنظرةٍ قاسية، تؤكد لي أن علاقتنا تصدَّعت، لا يُلوِّح لي على عادة أهل البادية بيده، رويدًا رويدًا تختفي السيارة تاركةً صدَى صوت خطبة قوية دينية... يتردَّد في الأرجاء... يصيح ولد فاطنة:

- مَن...؟! هذا ولد الناجي وأسرته... يهشُّ بعصاه على الحصان، حاثًّا إياه على الإسراع على أمل أن يلحق بولد الناجي:

- أين يرحل؟! لن أتركَه يرحل... إن كان بسببي سأُقبِّل قدمَيْه... سأعتذر له... الدوار بلا ولد الناجي ظلام... إبراهيم هو مِلح الطعام...!!

يختلط كلامه بالدموع، يبكي، ثم ينتحب وهو ينادي ويلوح بعصاه:

- إبراهيم... إبراهيم... لا تذهب... توقف... توقف... أرجوك... كلمني... أرجوك... لن أعمل مرة أخرى عند يعقوب... أنا آسف عد إلى الدوار... أرجوك...!

تخور قواه، ويتباطأ الحصان مُنهكًا وقد كان ضامرًا هزيلًا... ثم يتوقف... ينزل... يشعل سيجارة... أشعل لنفسي واحدة... ثم يقول منتحِبًا:

- فرَّطنا في أخينا... إلى أين أخذ البنتين والزوجة...؟!

أواسيه وأنا أُربِّت على كتفه وأقول:

- ربما رحلة قصيرة ويعود...

- لا يا ولد العياشي... هذه رحلة اللاعودة... لقد أخذ معه الأثاث... نعم... رحلة اللاعودة... كم أُشفق على البنتين من الغُربة... أنا حزين... حزين...!!

يضع رأسه بين يديه، ويجلس لحظة، ثم ينهض يمسح دموعه، يَسرح بنظره على الطريق، وهو يحملق في الغبار الذي أثارته السيارة، ثم يضرب الأرض بقدمه، وتعوده نوبة البكاء!

فيرتمي في حضني ويجهش كطفل صغير، ثم يعود إلى العربة، يهمز الحصان بعصاه، في صمت ووجوم نقطع الطريق إلى أولاد الصياد...!

9

تشرق الشمس وتغرب... تستمر في هذه الدورة كلعنةٍ أبدية بلا ضجر ولا كلل، فتغرب معها أعمارٌ، وأحداث، وذكريات، وأحزان، وأفراح، وتُشرق معها حيوات جديدة، وعوالم أخرى تخرج من العدم... وبين أنيابِ آلةِ دورانِها تسحقُ العمر الذي لا يتجدَّد... وأنا على ديدني... أبيت في حضن زينة ليلًا... وأبدِّد الضجر والملل في حانة الطاحونة الحمراء...!

لم يغير هذا الإيقاع الرتيب غير حدث فظيع هزَّ مشاعري، غيَّرنا جميعًا، وأنعش هواجسي التي كدتُ أتخلَّص منها، زلزال أمَّن النفوس، ورسَّخ الإحساس بخطرٍ ما أعمى مُحدِق بنا جميعًا دون أن نعرف توقيته، ولكنه لعب ورقتَه الأولى، كادت تجنُّ له زينة وزبيدة، في ربيع عام 2003 اختفى فجأةً منير، وكانت زبيدة قد عادت لتأخذه إلى باريس لإجراء العملية، ولم تكن تلك عادته، لم يأتِ للملهَى، ولا أحد من معارفه يعرف عن غيابه شيئًا، حتى «شارل» كلَّف حراسه بالبحث عنه في أكثر من مكان، في المستشفيات ومراكز الشرطة والسجون، لكن لا أثرَ له... وبغيابه المشبوه والمخيف في آنٍ واحدٍ غابت الفرحة في أجوائنا، وانقطعت زينة عن العمل في الملهى، وعاشت في حِداد تنعيه قبل أن نعرف عنه شيئًا، تتوالى الأيام سريعةً... فيزداد في قلب زينة اليأس والخوف... رحلَتْ إلى مسقط رأسه تستقصي أخباره... لم يرَهُ أهلُه منذ رحيله الأول... فعادت كما رحلت بدون أخبار تُخمِد نارَ قلقها، وتُعيد لحياتنا إيقاعَها الطبيعي...

خيَّم الحزن على حياتنا... وتغيَّرت عاداتنا... نجلس في صمت... كل ليلة... وننتظر...!!

ذات ليلة رن هاتف زينة... كنا جميعًا في شقة شارع 11يناير، لا تعرف رقم المتصل وبدا لها أنه رقم رسمي إداري، أحثُّها على تحويل الهاتف إلى

وضعيَّة الصوت العالي، ثم في خوف وأنا وزبيدة أقرب إليها من أنفاسها...
- من؟!
- مساء الخير سيدتي...
- مساء الخير... من معي؟!
- الشرطة...!
أشعر بتغيُّر ملامح وجهها، خيَّم عليه الخوف والقلق، فانقبضت أساريرها... تقول في ضعف وارتباك
- «يا ك لا باس...»؟! سيدي...
- سبق لك سيدتي وأن حررت محضر اختفاء...؟
ترد في اضطراب، يكاد الهاتف يسقط من يدها:
- نعم... هل عرفتم شيئًا عنه...؟! أرجوك تكلم...!
- رجاء سيدتي التحقي بنا... بعد ساعة في مشرحة الطب الشرعي بالحي الحسني... هناك جثة، بالمواصفات التي وصفتِ في المحضر، والصورة التي معنا لا توضح كثيرًا... نريدك أن تتعرفي عليها...
- تصرخ زينة، وهي تلطم خديها بقوة كفيها، وتهشم الهاتف على الجدار فتتناثر شظاياه في الغرفة:
- لا... لا يمكن... لا... لا يا ربي إلا منيرًا.
أحاول تهدئتها لكنها ترتجُّ وتهتزُّ بين يدي، تنضمُّ إليها زبيدة تلطم وتمزق ثيابها، تصيح في حزن جارف هزَّها هزًّا مُزلزِلًا حتى حوَّلها شاحبة ممتقعة اللون:
- لا أحد يقول لي إن منيرًا ميت... لا... لا هذا مستحيل... منير لا أعداء له... قريبًا سيستعيد حياته... تذكرة الطائرة معي... والحجز في المستشفى... في حقيبتي... لا... لا...!!!
ترتمي زينة في حضنها وتصرخ في اضطراب قوي وهي تلطم صدرها:
- لا... لا يمكن أن يكون هو... هو طيب... لا أحد يكرهه... لم يُؤذِ أحدًا في حياته...!!

تتنفَّس في ضيق، يغلبها اللهاث وهي تبحث عن أنفاسها، تعطيها زبيدة كأس ماء، تسترجع أنفاسها، تستلقي على الأريكة وتقول في ضعف:

- مستحيل... مستحيل أن يكون هو...

في عقلي تتناسل الفرضيات، وأفترض أنه لو كانت الجثة جثته، فربما هلك في حادثة سير... خصوصًا وأن سيارته اختفت هي أيضًا... أحثهما على النهوض مستعجلًا:

- لنرَ... لنذهب إلى المشرحة...

أصرَّت زينة وزبيدة على الدخول والتعرف بنفسيهما على الجثة، كان للمستودع رائحة خاصَّة، غريبة، وزاد من وحشته بكاء بعض العائلات على بوابته، وتقاطر سيارات نقل الموتى إليه، وجماعات من الناس هنا وهناك كأن الطير على رؤوسهم، خيَّم عليهم الحزن والأسى عدا الباكيات من النساء اللواتي يرثين موتاهن في شجًى وألم، فتح الطبيب الثلاجة، وجرَّ رفًّا من رفوفها، عرَّى الوجه... ويا ليته ما فعل...!!

سقطت زينة من هول الصدمة فأغمي عليها، وانهارت زبيدة في هستيريا بكاء جارف، ضِعتُ بينهما، محاولًا تهدئتهما، فما أفلحتُ... ساعدني الطبيب، فحقنَهما بمُهدئ...

بعد أن استرَدَّتا هدوءَهما، لوَّح لنا الطبيب أن نلتحق به في مكتبه، قال وهو يكتب على ورقة، وينشغل عمدًا بمسح نظارتيه، ثم يتفرَّس فينا، حتى رتب عباراته، وقال:

- أعزيكم... كلنا لها...!

- شكرًا... سيدي...

أشعر به محرجًا من أمرٍ ما، يتردَّد فيه وهو يجول مكتبه، ويمسح نظارته أكثر من مرة، عاد وجلس وأطلق هواءَ زفيرٍ كأنه يتحرَّر من ثقلٍ ما وقال:

- اسمحوا لي هناك أمر حساس... المرحوم... الأمر عادي عندي... لا موقف لي ضد المثليّين... لا تفهموني خطأ... لكن لاحظت أن هذا الرجل ظُلم حيًّا وميتًا.

ترمقه زينة بنظرة خاطفة، وقد احمرت عيناها، وتقول:

- كيف يا سيدي...؟!

يكاد يُجَن القلم بين أصابع الطبيب وهو يعذبه بين أصابعه من التوتر، ينقر بأصابعه على المنضدة، ثم يضيف:

- لم يكن رجلًا... أعني ذكرًا... لقد كان له تشوه خلقي... عضوه التناسلي الذكري هو الأصلي، أما أعضاؤه الأخرى فهي تشوُّهات... ولقد أخذت عينات من نسيجه وهرموناته... هو أنثى... المسكين... كان ممكنًا تصحيح هذا التشوه في الطفولة لتجنيبه الحرج والانفصام...!

ترفع زبيدة بصرها نحوه، في نظرات مبللة بالدموع، يغشاها الشجى، تمسح مخاطها، بمنديلها، وتقول باكية:

- كنا نعلم يا دكتور... لقد هيَّأت له كل الأوراق لتصحيح الخلل في فرنسا لكنه للأسف مات قبل إجرائها... نريد أن نعرف كيف مات...؟!

- الأمر الآن بيد الأمن والتقرير عندهم... للأسف... تعذب هذه المرأة كثيرًا... في هذه الجثة...!

نلتحق بمقر الشرطة في «الدار الحمراء» يعلمنا الضابط المكلف بالملف بأحداث غريبة، فقد وجدوا الجثة مرمية من أعلى بناية في بلدة عين حرودة، ومعها ورقة، كتب عليها: «بسم الله الرحمن الرحيم... هذا مصير الشواذ واللوطيين أعداء الله إخوة الشيطان... في بلد الإسلام... الحدُّ قتلًا بالرمي من علو شاهق... وهو عبرة لمن يسعَى إلى تمريغ كرامة الإسلام...»!

لم ينطل التمويه على المحققين، وما هي إلا أيام حتى تم القبض على قاتل منير، ولم يكن غير الحارس الليلي لأحد العلب الليلة، الذي كان يربط علاقة حميمية به، قتله من أجل مدخراته، وحاول التمويه على الجريمة بتوجيه التحقيق نحو المتطرفين.

في اليوم الموالي، حضر عدد قليل من معارفه، خصوصًا من الملهى وأصدقاء بعيدون لا نعرف جُلَّهم... تمَّت مباشرة عملية غسله في قاعة خاصَّة بالمشرحة من لدن شيخ المغسلة... تأخر الغسل وطال، حتى أصابنا

السأم والحزن يعصرنا... كانت بعض الأسر تنتظر دورها لغسل موتاها... وسط الحشود ضاعت في وجوم جلي زينة، وانزوت زبيدة بعيدًا متكئة على إطار سيارتها، في سواد جلبابها... كان الانتظار يعتصر أكثرمنا أمهات وآباء وأخوات وزوجات وأزواج في مندبات مفتوحة أمام بوابة المشرحة، لا يقِلُّ حالهم عن حالنا. ثم ظهر المغسل. لوح لي في ضعف... دنوتُ منه... بدا لي مرتبكًا... قلقًا... غارقًا في ذهول، قال:

- احملوا الميت بإذن الله إلى مثواه... لم يبقَ له من هذه الدنيا غير الدعاء أو صدقة جارية... فاعتبروا واتعظوا...!

دسست في يده ورقة نقدية، فوثب بخفة رغم شيخوخته وردها إلي في أدب قائلًا:

- أستغفر الله يا بني... لا نريد إلا الأجر والثواب من الله.

- جزاك الله خيرًا...

أهم بالانصراف يستوقفني ثم يقول بصوت خافت في ارتباك وشفتاه ترتجفان من القلق ويمشط لحيته البيضاء الغزيرة بأصابعه:

- يا بني... اعذرني تأخرت عليكم... لكنكم أحرجتموني يا بني... والله... كان عليكم أن تعلموني... حتى نستشير الفقهاء في فتوى غسل الخنثى... ولم يسبق لي أن غسلت جثة تختلط فيها الذكورة والأنوثة... فمهما كنتُ لستُ إلا مُغسِّلًا في المشرحة... وإمام مسجدهم الصغير... لولا أنني أخذت الفتوى هاتفيًا من العالم سيدي محمد الرباني، فأفتاني بغُسلها على الظاهر لا على الغابر، لوقعتُ في حيص بيص... الله الستار يا ولدي... سبحان الله في خلقه... صلوا عليه صلاة الجنازة في مسجد المقبرة... جنازة رجل... أسرع الآن... فإكرام الميت الإسراع بدفنه... لا حول ولا قوة إلا بالله...!

ينصرف المغسل في تؤدَة وهو يطوي كُمَّي جلبابه مستغفرًا دون ملل، ترمُقني زينة من بعيد... تهزُّ رأسها في أسى وحسرة، استنتجت لا محالة ما دار بيني وبين المغسل، ثم تلوح لي بيدها أن أركب سيارة نقل الموتى...

يوارَى جثمان منيرولا يمشي في جنازته إلا قلة من الناس... جاء غريبًا للدنيا وغادرها غريبًا. لا أحد من عائلته سيندبه ويَبكيه ويرثيه ويتلقَّى عزاءه... فقط... نحن... أنا... زينة... وزبيدة... الذين جمعتنا الأقدار... فصرنا أسرتَه... سنبكيه حتى تقرَّ نارقلوبنا... ونرثيه حتى نروي شوقَنا له... وسندعوا له صادقين بالرحمة والمغفرة... كان مؤمنًا... ومات في سلام مع نفسه... رحل دون وداع فأخذ معه أسراره إلى مثواه... رحل فتبدَّد حلمه في أن يكون كباقي الناس... جسدًا متصالحًا مع الروح والعقل... رحل فخلَّف فينا فراغًا قاتلًا... وأسئلة حارقة بلا أجوبة... مَن يكرهك يا منير؟!

صُدم صابر وهو يتلقَّى الخبر الذي أربكه أكثر ما أحزنه، فصابر حينما يتعلق الأمر بالآخرين لا يتوانى عن الاستنجاد بمبادئه التي يُعطِّلها فقط كلما تعلق الأمر بحياته الخاصة، تفهَّم لحدٍّ بعيد وضع منير، لكنه كانت له رؤية أخرى، لم يعُدَّ طريقةَ موته حدثًا معزولًا، وجريمةً كباقي الجرائم، بل كان متشائمًا، وهو يقول والسيجارة تحترق احتراقًا سريعًا بين شفتيه ويتساقط رمادها على صدره: «يا صديقي... بموت منير بهذه الطريقة... والوحشية... فتح باب الجحيم على البلد ودخلنا في مرحلة أخرى أخطر من أي زمن... كنا نتصارع ونعرف عدوَّنا وخصمنا... والآن لن نعرفه... ولن نعرف من أين يأتي وأين يتشكَّل...؟! قد يأتي من بيوتنا... من جيراننا... من أي مكان من الصعب تحديده... أخشى أن نصير في هذا البلد جماعتين... ناجية وكافرة... يا زميلي... أشعر بالخوف من الغد... على بلدي...»!!

ثم يضيف وهو ينظر إلى لطيفة الكاتبة التي تغيرت طريقة لباسها، تحجَّبت دون أن نشعر بها... غيرت ملابسها القديمة القاتمة بعباءات طويلة، وصارت قليلة الضحك، تغضُّ البصر، وترفض المصافحة: «انظر... لقد وصلوا مبكرًا إلى بيوتنا... من أدراك غدًا... قد يَصِلون إلى بيوت نومنا... مَن كان يصدق أن لطيفة في يوم ما ستضع الحجاب... والمُشكِل ليس في الحجاب... فأمهاتنا كنَّ يضعن النقاب... ولم يكن هناك مشكل... المشكل أكبر بكثير مما يبدو...»!

فعلًا... تغيرت لطيفة مزاجيًّا وهندامًا، تحجبت ولم يبدُ لي الأمر في البداية غريبًا، لكنها أصبحت منعزلةً عنَّا... لا تمدُّ يدها للمصافحة... فمتَى تغيرت؟! ومَن غيَّرها؟!

سحبني صابر إلى مكتبه، أغلق الباب، ثم قال:

- سأقول لك شيئًا... ظل ثقيلًا على صدري... لقد كنت جبانًا في علاقتي مع أسماء... فعلًا... كل ما قُلتَه صحيح... جيلنا الذين يفكر مثلي وله المبادئ نفسها، ضائع بين عالمين، عالم الأفكار، وعالم الواقع... وأنا ما زلتُ أتخبَّط في تناقضاته منذ زمن ولم أخرج منه... صدقني لست مزيفًا ولا منافقًا... ولا مخادعًا... أنا ضائع... لست أقل ضياعًا مِن الذي قتل منيرا ويظن نفسه نفَّذ حكم الله...!!

- لا عليك... كلنا ضائعون...!

- زوجتي... المسكينة... من أدراني أنها لم يمسسها إنس ولا جن...؟! من أدراني أن عفتها في بكارتها...؟! اختلطت الأمور... ما معنى العفة...؟! من أدراني...؟! ربما انتزعت هذه المرأة رغمًا عنها من حلمها... وفي قلبها يسكن شخص آخر تحبه، وما زال عقلها يستحضره في فراشنا... أليست العفَّة وَهْمًا في زمننا هذا...؟! دعني أقل لك... العلاقات الجنسية تغيرت وتطورت... وصار بإمكان الفتيات ممارسة الجنس لحد الإشباع مع الحفاظ على عذرية مزيفة... تؤرخ لعفَّة وهميَّة... يا صديقي... نحن في زمن صارت العفة صناعة في عيادات الأطباء... نحن في زمن الزيف بامتياز... نحن ضائعون...!!

- ولمَ تبحث عن العفة كفارس من القرون البائدة...؟!

- نعم... فِكري يرفض هذا الطرح... ولكن عقلي فيه أعراضُ تخلُّف عميق... حتى إنني لا أتصور أن يكون لزوجتي علاقات سابقة... أُجَن في التفكير في الأمر... يا لتخلُّفي...!!

- إن كنتَ أنت يا صابر اليساري تقول هذا... فماذا أقول أنا...؟! لا عليك... لم نعبُر بعدُ... ما زلنا عالقين في منتصف الطريق... أو عبرنا خطأً بلا مناعة... هنا في العقول... لا في الكلمات...!

يُطرَق الباب، تستأذن لطيفة على غير عادتها وتلج غاضَّةً البصر، وصابر يرمقها بنظرات قاسية، ثم تقول بصوت خافت:

- هل أذهب للمحكمة... للقيام بالإجراءات...؟!

لا يرد عليها، يسود صمت... يرشف رشفة من فنجانه ينتصب واقفًا، يدنو منها، يتعمَّد دغدغتها بأصابعه وهو يطوف حولها مقوسًا كقط في تأهُّب، تحاول الإفلات من حصاره محرَجةً، وتصيح:

- حشومة... حرام... دعني أرجوك... دعني...

يتلبَّد ويمتقع لون وجهها حرَجًا... حنق... فتتكوَّم منقبضةً بمنكبيها كأنها تخشَى هَوْلًا ما، وهي التي كانت تُبادله الأمر حد العراك الساخر... ضحكًا... قهقهةً... يعود إلى كرسيه... ثم يقول مصوِّبًا نظره نحوي:

- أرأيت يا عزيز ماذا وقع؟! لطيفة الحمامة الوديعة التي كانت تملأ الدنيا ضحكًا... صارت ترفض مصافحتي... ونحن مثل الإخوة... انظر إليها... كيف صارت محطَّمة... خائفةً بعدما كانت البسمة لا تفارق شفتيها...؟!!

متلعثمة، تردُّ عليه لكن في قسوة:

- للأسف... أنت ضالٌّ وتريدني أن أضلَّ مثلك... أنا هداني الله... وأدعو الله أن يخرجك أنت أيضًا من جاهليتك...!

- أي جاهلية يا حمقاء؟! هل أئد الفتيات وأغزو القبائل وأسبي النساء؟!

تحملق في شِبه ارتياب، كأنها مترددة في قول شيء قد يطالني أنا أيضًا لهيبُه:

- وماذا تسمي الخمر... والنساء... والليالي والسهر وهذه السموم التي تدخنها؟!

- والله صرتِ واعظةً... أسألكِ بالله لمَ ترفضين مصافحتي؟! أتظنين أنكِ فتنة لي... يا حمقاء انظري إلى نفسك...!

- المصافحة باليد حرام مع غير مَحرَم...

- بنبرة ساخرة، ينتفض ثم يدنو منها بوجهه مكشرًا عن أنيابه، حتى كادت جبهته أن تلمس جبهتها ويقول:

- طبعًا أصبحتِ «عالمةً»... علموك بعض الكلمات... وأغروك بالآخرة... فأخذوا منكِ بهجة الحياة... وليكن... قولي لي يا «حذقة» هل لكِ حلول للاختلاط في العمل... في وسائل النقل... وحين يفرض عليك العمل أن نكون معًا... لا غير... هل الشيطان في عطلة؟!

- الضرورات تبيح المحظورات...

غاضبًا في اضطراب يردف:

- لطيفة تعلَّمت بعض الكلمات وصارت تُفتي... آه...!. يا زمن... وأي ضرورة لك يا «فقيهة» آخر الزمان... وأنتِ لستِ مضطرَّة للعمل؟! وهل تظننين أن أحدًا ما ممكن أن تثيريه أنتِ... أنتِ... انظري إلى نفسك في المرآة...!

أقاطعه رحمةً بها، وقد بدت لي متوترةً جرَحَها كلامه:

- اسكت يا صابر... فلطيفة مهما يكن أختنا...!

- أصمتُ؟! لقد خدَّروها... وحولوا حياتها إلى جحيم... انظر إليها... لقد ماتت حية...!

لم تتمالك لطيفة دموعَها... تنهار باكية، ترمي في وجهه ملفًّا، فتتطاير أوراقه في الفضاء، ثم تهرع خارجة وهي تصيح:

- أنت شيطان... شيطان...!

تغلق الباب بقوة، على صدى صراخ صابر:

- نعم... هذا هو الحل اهربي يا جبانة...

أقف... أضع يدي على مكتبه منحنيًا... أنظر في عينيه في غضب وأقول:

- يا أخي دعها وشأنها... هي حرة... تُسلِّم... تُصافح... ما لك أنت...؟! احترم وجهة نظرها... ألم تكن تدافع عن حرية المرأة؟!

يرمي عقب السيجارة دون أن يدري في غضب، يدوس عليه بقدمه، والمرمدة قريبة منه على طاولة القهوة، ويردف وهو يشعل سيجارة أخرى:

- لا أريدهم أن ينتزعوها مني... لا أريدهم أن يتسللوا إلى حياتنا المهنية ويهدموا كل ما آمنتُ به... وناضلتُ من أجله...!

- عمن تتحدَّث...؟! إنك تعطي الأمر أكثر ما يستحق... لا يخلو يوم دون أن نكتشف امرأةً أو فتاةً... تحجبت... وأخرى وضعت الخمار... فأي خطر في هذا...؟! يا أخي دعك من هذا الكلام... لقد ساهمتَ في هذا التحول الذي طالها... وسهَّلت الأمر على من تتخيَّل أنهم غيَّروها!

- الخطر ليس في الحجاب ولا في الخمار... بل في الأفكار... سنصبح فريقَيْن ونحن عائلة واحدة... لكن قل لي كيف تزعم أنني ساهمت في تحوُّلها؟!

- ألم تتخلَّ عن أسماء بعد علاقة طويلة وتزوَّجت فتاة من البادية؟! ألم ترفض الزواج منها بحجة أنها كانت خليلتك وتعاقرك الكؤوس مع أصدقائك... يا صابر... لقد سقطْتَ من عيني لطيفة... منذ ذاك الحدث... لم تعد نموذجًا لها في الحياة... تناقضاتُك أربكتها... لم تعد مرجعًا لها... صدقني... أنت ساهمت في الأمر... إن لم تكن السبب الأقوى لهذا التحوُّل بتناقضاتك وخطابك المزدوج...

يضع رأسه بين يديه، يُطرِق الجبين، لا ينبس بكلمة واحدة... أنصرف أيضًا في صمت... وعقلي يُردِّد: «مَن هم الآخرون الذين يتحدثون عنهم... مَن هم هؤلاء الذين كسبوا لطيفة في صفهم...»؟!

10

لم تعُدْ لطيفة للعمل... فارتبكنا... واختلطت الملفات والمواعيد، لم يكن صابر يُكِنُّ لها حقدًا ولا ضغينةً، عرَّج عليها مرارًا في بيت أسرتها، وفي كل مرة يُخبَر أنها رحلَتْ دون أن يُزوِّدوه بجهة سفرها والأسباب... فقط الردُّ نفسه...!

تم الاستعانة بنجاة لترتيب أعمال المكتب، وهي فتاة في العشرينيات غِرَّة، ممتلئة بالحياة والحماس.

أحضرلي الحمري ذات صباح فنجان قهوة وقال:

- أستاذ... العجب العجاب وقع في حينا...!!

أنظر إليه، أُحفِّزه لعرض ما لديه... وأنا منشغل بتصفُّح أوراق ملف... فقد غدا هذا الشاب المروج للأخبار بلذة ومتعة جارفتين قناةً مهمة لي للأخبار ومجانيَّة قائلًا:

- أي عجب هذا...؟! عم تتحدث...؟! هل من جديد؟!

يحثُّني على النهوض والاقتراب من النافذة، لأنظر خارجها:

- انظر... يا أستاذ...!. مَن هناك...؟!

- مَن؟!

- ذاك الشاب الذي يبيع عصير قصب السكر... أرأيته؟! هناك... هناك... حيث العربة أمام مخدع الهاتف...

- نعم... رأيته... ما المشكل؟!

- أتعرف مَن هو...؟!

- لا... كيف لي أن أعرفه...؟!

- ربما تظنه فقيهًا من لباسه...!

- يبدو ملتزمًا...!

- هذا عبد اللطيف...!

- وليكُن... مَن عبد اللطيف هذا؟!

كمن يبوح بسر خطير، يدنو مني بخفة:

- ولد الأعور الصغير...

- الأعور... آه... تذكرت... ولكن ابنه الأصغر في السجن...!!

- نعم... غادره منذ أسبوع... هذا شرمولة... يا أستاذ...! خرج من السجن شخصًا آخر... وأصبح كأنه غُسِل دماغه... أو... كأنه كان في سفر لتعلُّم الدين...!

أتفحَّص وجه الشاب الذي كان على عتبة العشرينيات، في لباسه الذي يُشبه لباس الأفغان، قد أطلق لحية كثَّة وحلق شاربه، وشمَّر لباسه الذي كان عبارةً عن «فوقية» لم تتجاوز الكعبين ونعل جلدي... وجوارب طويلة سترت ساقيه...

- سبحان مُغيِّر القلوب... وليكن... إذن السجن أصلحه...!

أقول العبارة الأخيرة، وأنا أداري موقفي وخوفي العميق الحقيقي دومًا من أشخاص تغيَّروا فجأة وصار هذا لباسهم، وغدوا جماعةً متفرِّدة في لباسها وشؤونها...!

- يا أستاذ... من قال إن شرمولة... أعني عبد اللطيف... يتحول بهذا الشكل؟!

- وما العجب...؟!

- أيخرج من بيت هؤلاء المجرمين... تجار المخدرات... مثل هذا...؟!

- قلتُ لك الله يهدي من شاء...!!

- لكنه... تغير كثيرًا... غدا حلو اللسان... طيب الخلق... مسالمًا... وواعظًا أيضًا... وقد دخل في خصام مع إمام المسجد... عدة مرات... الإمام لا يُحبُّه هو وجماعته... لقد صادفتُه في الحي... سلم عليَّ وقال لي: «متى يهديك الله يا الحمري»؟!... تخيَّل... يعظني شرمولة...!!

- جماعته...؟! تقصد ماذا ؟!!

- رجال بلِحًى كثيفة... حلقوا شواربهم... لبسوا لباس الطالبان... وانتعل أكثرهم صنادل رياضية... أقوياء... تفوح منهم رائحة العنبر... غير أنهم غير منعزلين عن الناس... يُتاجرون معهم... أعمالهم بسيطة... أما زوجاتهم وبناتهم فهنَّ يتحركنَ كخيام سوداء لا ترى منهنَّ شيئًا، حتى الأكف...!!

ينصرف وهو يضرب كفًّا بكفٍّ مردِّدًا:

- شرمولة...؟! لا أصدق...!

أشيعه من النافذة، يتوقف لحظة عند شرمولة الذي يخوض معه في حديث، ووجهه تعلوه ابتسامة بينما ظهر الحمري مضطربًا... يتجرَّع في جرعات متتابعة كأس عصير قصب السكر مُصغيًا في اهتمام ودهشة إلى حديث شرمولة، ويختفي في عمق المقهى.

بسط شرمولة حصيرةً صغيرةً، وشرع في الصلاة على ردهة العمارة، تزامنًا مع إقامة صلاة المغرب في المسجد المجاور، أستغرب من عدم التحاقه بالمسجد لأداء الصلاة جماعةً وهي أولى، ولا شيء يمنعه...!! يدخل صابر مكتبي وهو يقول:

- هل عندك ملف حادثة السير الأخيرة؟! لا أعرف أين وضعتُه... للأسف منذ رحلت لطيفة ارتبك العمل...!

- صابر... تعالَ... انظر من هناك؟!...

أشير إليه أن ينظر جهة شرمولة، من النافذة، يرد وهو يهز رأسه:

- ألم أقل لك إنهم ينتشرون في صمت...؟! ويزيد في أعدادهم الظلم والبطالة والفقر... سترى... أن أكثرهم فقراء... وتعليمُهم بسيط... لكن لا تبخس منهم فلهم قادة وشيوخ وأمراء يرتبطون بهم بالبيعة والطاعة العمياء... أغلبهم عانوا من شططٍ أو ظلم طال كرامتهم أو كرامة آبائهم أو أُسَرهم... أغلبُهم حملهم اليأس والحاجة إلى الأمان إلى حضن هذه الجماعة... وقد وجدوا بالانتماء قوَّة النفس وتبدُّد اليأس... جماعتهم توفِّر لهم الكثير عدا الإحساس بالانتماء... الذي هو في حد ذاته قوة وشعور مريح...!!

- انظر إنه لا يصلي جماعةً... والمسجد قريب جدًّا...!!

- هذا هو المُشكِل... فليس المشكل أن يرتدي هذا اللباس... ولا أن تتحجَّب النساء وتضع ما شاءت خمارًا أو حجابًا... لكن المشكل أنهم يعتبرون أنفسهم هم جماعة الحق... وإسلامهم هو الحق... لم يُصَلِّ في المسجد ربما جماعتُه كفَّرت الإمام... وكفَّرَت من يصلي معه... ربما اعتبرت الصلاة باطلةً في فتوى ما... وراء إمام هذا المسجد...!

- لا تقل هذا... شرمولة ليس إلا شابًّا غِرًّا... أين تعلَّم كل هذا؟!

- السجن يا صديقي... صار مدرسة للتطرف... السجن صار مشتلًا لهم... يدخل الشاب مجرمًا فيخرج منه مُكفِّرًا... حاقدًا...!

ألمح «مخزنيين» ومقدم الحي يتقدمون نحوه، في قسوة وجلف يقول له المقدم:

- سبق وقلتُ لك أن تُبعِد عربتك من هنا... ماذا تنتظر مني يا ولد الأعور...؟!

يبتسم في وجهه شرمولة ويرد:

- وأين أذهب؟! هنا وُلدتُ... وأريد أن أعيش بالحلال...!

- حلال... أم حرام... لا يهمني أنا الآمر... القائد أمرني أن أُبعِد هذه العربة من هنا...

يحاول «المخزنيان» أن يجُرَّا العربة نحو مركز القيادة، يدخلان في شنآن معه، كاد يتحوَّل إلى شجار، تنقلب العربة، تتناثر عيدان القصب، وشظايا زجاج الكؤوس، ويندلق العصير على الأرض، ينظر إليهما في غضب ويصيح وقد انتفخت أوداجه:

- اللهم إن هذا منكر... أريد أن أعيش بالحلال... اتركوني وشأني... أيها الظالمون...!!

يصفعه أحد رجُلَيِ السلطة ويجرُّه من ملابسه بقوة وعنف وهو يردد في غضب:

- أعرف أمثالك... يا أصحاب اللحى... لا يليق معكم غير الضرب... يا ابن الساقطة...!

تكفل «المخزني» الآخر بجَرِّ العربة، والمقدم يصيح:

- ستأتي الشرطة... ونرمي بك في السجن... وسنرى مَن الظالم يا ولد الأعور...!!

تشكلت حلقة من الفضوليين، آلمَ بعضَهم ما يقع، ويبدو أنهم تعاطفوا مع شرمولة... اكتفى الكثيرون بالمشاهدة وهو يتهامسون فيما بينهم، لكنهم انقسموا بين متزلّف للسلطة، وبين متعاطف مع شرمولة الذي ما زال ماضيه وحاضر أسرته يُرعِب الجميع... يُشيِّعهم بنظرة عميقة أخيرة، وقد امتلأ صدره حقدًا وغضبًا ثم يختفي بين أمواج العابرين في الشارع العام...!!

ينظر إليَّ صابر ويقول:

- لقد صبوا الزيت على النار... أغبياء... إنهم يُمهِّدون ويُذلِّلون الطريق نحو التطرف بأفعالهم الطائشة غير المدروسة... أراك غدًا... سأخرج...

انصرف وهو يهزُّ رأسه... وفي عينيه حزن وقلق... أشعر بأن شيئًا ما بدأ يتغيَّر في قلب صابر... «يُطبَخ» شيءٌ ما على نار هادئة في عقله... فقد خبت جذوة الفرح من عينيه وأفَلَتِ ابتسامتُه المعهودة، وخَفتَتْ معها روح الدعابة عنده... صار كثير الشرود... تائهًا... لم أشأ أن أتدخَّل في الأمر... وعوَّلت على الأيام المقبلة لتكشف لي سر هذا القلق والعبوس.

وأنا أهم بالخروج متجها إلى الشقة، تراءى لي شرمولة في زاوية من الحي، كان الضوء خافتًا من جراء عطب في بعض الأعمدة، شعرتُ بدون إرادة بالخوف، ولا أعرف لما استحضرت منيرًا في هذه اللحظة، كنت أتقدم في الزقاق في حذر وتوجُّس، وشرمولة ينظر إليَّ نظرةً لم أُحدِّد معناها وقد ستره ظلام خفيف... تخيَّلته سينقضُّ عليَّ، فتظاهرتُ بنسيان شيء وأنا أفتش في محفظتي، وعدت أدراجي إلى المكتب، أشعلت النور، وطفقت أنظر إليه من النافذة، يذرع الزقاق عرضًا وطولًا... طنَّت ذبابة أمام وجهي ثم

قصدَتْ رموشي، أنِشُّ عليها بيدي، فيرفع شرمولة عينيه صوب النافذة، ويلوح لي، ظنًّا منه أنني لوَّحْت له... أشعر بالخوف... مُرتابًا منه، أتأكد من إغلاق باب المكتب جيدًا، أعود أجلس... تداعب عيني إغفاءة... أطردها بسيجارة... أفتش عن قنينة الكونياك بين الملفات، تصل لها يدي، أُفرغ منها جرعات في جوفي دون كأس... أشعر بالدفء... يتبدَّد الخوف شيئًا فشيئًا... أدلف خارجًا... بلا جزع، يستوقفني شرمولة ويقول:

- السلام عليك أستاذ...!

أرد السلام، بيد أنه في جرأة يدنو مني، يتفرَّس في ويُردف:

- متى يعفو عنك الله يا أستاذ...؟! أنت رجل طيب وتستحق كل الخير...

أرد عليه بابتسامة وأضيف:

- أسألك الدعاء لي...

قبل أن أختفي في الزقاق المؤدي إلى شارع مزدحم، يصلني صوتٌ عالٍ من خلفي:

- سي عزيز... سي عزيز... ولد العياشي...

استغربتُ من هذا النداء، فلا أحد يعرف اسم أبي، ولم يسبق لي أن ناداني أحد به، ألتفتُ، أجد نفسي وجهًا لوجه أمام ولد الناجي وقد طالت لحيتُه، تكاد تلامس نحرَه، وتغيَّرت ملابسه وصارت أقرب إلى لباس شرمولة، يُسلِّم عليَّ بحرارة ثم يقول مستنكرًا في وجوم:

- أعوذ بالله... أتشرب الخمر ؟!

- لا... فقط هذا شراب دواء له عبق خمري... وأنت ماذا تفعل هنا...؟!

- جئتُ عند أخي... عبد اللطيف...

- وهل لك أخ هنا؟!

- أخي في الإسلام... يا أستاذ...

- آه... تقصد شرمولة...

- نعم... سمعت أن عربته احتُجزت فجئت كي أسلمه مساعدة الإخوان... جزاهم الله.

- أي مساعدة...؟!
- نحن البائعين في السوق... ندعم بعضنا البعض في الأزمات.
- وأنت ماذا تبيع؟!
- أبيع النقانق... و«قضبان» اللحم المشوي... ومثلهما...
- هل لك محل؟!
- لا عندي عربة...
- وأين تسكن الآن...؟!
- اشتريت «زريبة» في كريان أهل الغلام...
- تقصد براكة...
- نعم... المهم... أن يعيش الإنسان بالحلال...

هممتُ أن أدعوه لزيارة الشقة، فتراجعت وأنا أستحضر صورة زينة وزبيدة، وحالة الأدراج، نظر إلي نظرة عميقة، ثم قال:

- سأراك فيما بعد... سأزورك في المكتب... نسيت أن أسألك عن حال أبيك... هل شفي...؟!
- وهل هو مريض؟!
- نعم... جاءتني الأخبار من الدوار... زُرْه... صِلة الرحم لن أوصيك بها يا متعلم...!

انضم إليه شرمولة في الزقاق... ثم انخرطا في حديث خافت وهما ينظران حواليهما، بعد لحظات توقفت سيارة، استقلاها ثم انطلقت بعيدًا.

في الغد عدتُ والدي المريض بدوار الحرث، كان طريحَ الفراش... متعبًا... لكن ما به من داء جسدي واضح، قالت أمي إن الطبيب نصحه فقط بالراحة... لم يعد قادرًا على الصلاة بالناس بالمسجد هذا ما حسبت في البداية، لكنه قال لي ذات ليلة في كمد:

- عن أي مسجد تتحدث يا ولدي...؟! المسجد مكان كباقي الأماكن بدون مصلين...!!

استغربت وقلت له:

- وهل بلغ بأهل دوار الحرث الأمر لحد أن ينقطعوا عن الصلاة؟!

- لا يا بني... لقد مالت قلوبهم إلى مسجد آخر... فيه شاب له صوت ندي... يأسر القلوب بحسن تلاوته... ولكن ليس هذا هو الذي حزَّ في قلبي... الذي آلمني هو هذا التغير في الدوار وقرية أولاد الصياد... يظنون أن الدين هو إطلاق اللحى... وتلك الملابس الغريبة... الكل أصبح يريد أن ينهَى عن المنكر والأمر بالمعروف... حتى اختلطت على الناس الأمور... وبعض الشباب اعتزل الناس في مساجد خاصَّة... يا ولدي الأمة تتفرق... الأمة في خطر!!!

وقالت أمي وهي تعجن العجين:

- وبعض نساء الدوار التحفن العباءات الطويلة، بل منهن مَن غطت نفسها تمامًا...!!

يرد عليها أبي في ألم وهو يئن:

- يا عائشة... لا ضرر في ذلك... لكن الضرر أن يعتبروا مَن يُخالفهم في اللباس والحياة خارجًا عن المِلَّة... الأمة الإسلامية لم تخلُ مجتمعاتها من هذا اللباس منذ القِدَم... لكنه لم يؤثر على الحياة وظل الناس في لُحمَة وانسجام...

كما تغيرت بعض الوجوه والقلوب بالدار البيضاء، وصلت الرياح نفسُها إلى البادية، فها هو دوار الحرث غير مسجده وإمامه، وتغيَّرت أشكال اللباس عند الرجال والنساء... شيء ما يحصل في هذا البلد في غفلة منَّا... أهي رحمة من الله... أم أن أبواب الجحيم تُسعَّر باسم الدين؟!

عاد يعقوب والدي وكان متعبًا وعليلًا كأنه على عتبة الموت، وخاض معه في الحديث... متأثرًا لحال أبي:

- أرأيت... يا سي العياشي...؟! فرغ مسجدك... والدوار تقلَّصت خيامه... وبدأ الناس ينزحون بعيدًا...

يسوي والدي جلسته في ألمٍ على الفراش، تسبقه يدا أمي فتضع له الوسادة بين ظهره والجدار ويقول في إنهاكٍ:

- يا يعقوب هذه سُنَّة الحياة!!

يرد عليه يعقوب متذمرًا:

- ما جئت للدوار كي أعيش وحدي... ما فائدة الجاه والمال إن كنتُ منعزلًا عن الناس... أنا لم أشترِ كل الأراضي من أجل الغِنَى فقط...! كنت أبحث لي عن أرضٍ أنتمي إليها... عن أناس يعترفون بي... والآن... لم تعُد هناك من فائدة...!

- تلك سُنَّة الله في أرضه... يهبُ المُلْك لمن يشاء...!

- حتى ولد فاطنة... رحل... الكل يرحل إلى المدينة... لن أجد غدًا مَن يعمل في الحقول... انظر إلى زيتون ولد الناجي... احترق... لم يسقِه أحد منذ رحل...

لأول مرة تعشَّى يعقوب من مائدة أبي ومن الطعام الذي أعدَّتْه أمي وهو يقول:

- لي... ليها... ليها... كم سنعيش؟!

هدأ البيت إلا من قراءة خافتة للقرآن تنبعث من حُجرة أبي، ومرَّتْ ساعاتٌ حثيثة تُقلِّب المواجع وتنبش في الذكريات، تلمَّستُ طريقي في الظلام نحو الخارج لأدخِّن سيجارةً، أفطن إلى غمامات دخان كثيف متصاعد من الربوة حيث البيت الكبير ليعقوب... بعد لحظة، ارتفعت ألسنة النار وارتفع معها الصراخ والصياح في الدوار:

- بيت ولد قدور يحترق... بيت ولد قدور يحترق...!!

كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، هرع في فزع وجلبة شقَّت صمت الليل البهيم... فهرعتُ معهم في خوف وهلع، كان الحريق قويًّا وشديدًا وألسنة اللهب الحارق الطائشة العالية تلتهم في شهية جزءًا كبيرًا من واجهة البيت وعلا لهَبُها بدخانه الأسود الخانق حتى حالَ دون اقترابِ الحشود العاجزة من بوابة البيت الكبير الممتدِّ الأطراف... فطالت المخازن والإسطبلات والحظائر والدكاكين المجاورة حيث يروج يعقوب سلعته وبذورَه وأدويته البيطرية، لم يستطع الرجال الدخول، وحتى مصادر المياه

كانت بعيدةً، والبئر الوحيدة القريبة لولد قدور قد أحكم إغلاقها وأحاطها بباب صلب من الفولاذ ولا يتدفق الماء منها إلا بمضخة أزرارها في غرفة داخلية موصدَة بشدَّة، فقط... ظلوا واقفين في عجز يعصر قلوبهم، تلحف وجوههم سياط الحر التي تحملها الرياح، من بين الناس شقَّ صوت أبي الصفوف وهو يصرخ متعبًا:

- أتتفرَّجون على الرجل يموت...؟! كسروا الأبواب وادخلوا... أسرعوا...

كبا أبي وسقط... حتى جُرِح مرفقه... أسندته للوقوف... وقلت له:

- يا أبي مستحيل الدخول... النار التهمت الأبواب... وباقي الأبواب موصدَة بإحكام ولا تُفتح إلا بالشفرات...

وانتظر الناس هنا... منهم العاجز الخائف... ومنهم المتردِّد الجبان... ومنهم مَن رأى في النار المشتعلة يدَ الله التي تنتقم للمظلومين من العتاة والظالمين...!

أطفأ رجال المطافئ النار التي أتت على كل شيء في هذا البيت الكبير وملحقاته وباقي الأجنحة فيه وتوابعه من البنيان... وعند الفجر لم يرتفع الأذان عاليًا في سماء الدوار كالعادة... فقد رحل المؤذن كما رحل الآخرون... كانت حصيلة هذا الحريق الجحيم مفجِعة ومؤلِمة... احترق يعقوب وزوجته وخادمته وحارسه القوي حتى تفحَّمت جثثهم... ولم ينجُ غير كلبه النادر النوع الذي بدا بين أطلال البيت القديم في أعلى الربوة يعوي كذئب مفترس...!

أصبح الناس على غمٍّ وهَمٍّ... ووقفوا على الدمار الكبير الذي خلَّفه الحريق، فتوزعوا بين متألِّمٍ ناطقٍ في غمٍّ، وشامتٍ في صمتٍ ناقمٍ في جُبنٍ، وفيما هم منهمكون في محاولة فهم ما جرى، ارتفع الصياح وعلت الجلبة جهة المسجد، فركض الرجال والنساء والأطفال وتباطأ الشيوخ لكنهم لحقوا بالجموع، والكل يخال والأيادي على القلوب أن المسجد طاله حريق وإن لم يروا دخانًا ولا لهبًا، لكن ما شاهدوه لم يستوعبه في البداية إلا قلة منهم... فانتشرت الهمهمات والتمتمات والأصوات المكبوتة بالأمس تحرَّرت بيد الحريق فتعالت:

- ما هذا؟! كنا مرتاحين في أمن وأمان في بلدتنا قبل أن يأتي يعقوب... ما عهدنا هذا عند الأولين ولا الآخرين...

وصوت آخر أجش لكنه قوي ومفخِم بنبرته العميقة، من بين الحشود يرتفع:

- ما لنا وأفعال يعقوب...؟! فليتركوا مسجدنا بعيدًا عن الأحقاد والانتقام...

وصوت مستدرِك آخر على الصوت الأجش القوي في حسرة ظاهرة:

- وهل بقي لنا مسجد؟! لم يرتفع الأذان هذا الفجر... والمؤذن رحل... وسي العياشي مريض، وأنتم صرتم تصلون في جامع أولاد الصياد... معجبين بالصوت الجميل للشاب الإمام... عجبًا... منكم... كأن الصلاة طرب ومتعة للأذن لا القلب...!!

يسود الصمت... ويهيمن الخوف والترقب والقلق على القلوب والعيون... ظهر أبي أخيرًا في حثيث وخطو وئيدٍ وضعف بيّنٍ يدنو من باب المسجد، ألمح في عينيه الحزن الطاغي، وبرق بريق خوف لم ألمسه في نظراته أبدًا، قال وهو يوشك أن يخِرَّ وقد وهنت ساقاه:

- اسندني يا عزيز... أشعر بالدوار... الأرض تدور حولي...!

أسنده، ثم أساعده على الجلوس، تثِبُ أمي نحوه في ذعر:

- ما لك سي العياشي...؟!. بسم الله عليك... قلتُ لكَ لا تخرج... ما زلت ضعيفًا...!!

يضع أبي رأسه بين يديه، ثم تبرق الدموع في زاويتي عينيه متحجِّرة كالزجاج وإن لم تصل درجة الانهمار:

- ضعنا... يا عائشة... ضعنا... واللهِ ضعنا يا ناس...!!

لم تدرِ أمي ماذا وقع، تدنو مني وتقول لي متسائلة:

- هل أحرقوا المسجد؟!

- لا يا أمي... ولكنهم تركوا رسالة...

تنظر إليَّ في اضطراب، وتقول:

- أين الرسالة؟! هل عند أبيك؟!

أشيرلها نحو المسجد، ثم أقرأ لها ما كُتب على الواجهة بخط كبيروبلون أسود» كما أحرقنا الخائن ابن الخائن وبطانة السوء... سنرمي باقي الخونة في الجحيم... الله أكبر»!

بعدما استوعبت أمي أن الأمر تهديد، وأن يعقوب وأسرته احترقوا بأيادٍ خفيَّة، وأن الحريق جريمة مدبَّرة، وأن مَن فعلوا ذلك يُكِنُّون ليعقوب الضغينة وحدَه... بل هدَّدوا آخرين... تقول وهي تهدئ أبي:

- الأمر لا يعنيك سي العياشي... أنت لست خائنًا... قم... قم... وسم الله... وصل على الحبيب، لنعد إلى البيت...!

ولأول مرة، أرى الغضب في عيني أمي... لا الخوف... فتنهرني وهي تصيح:

- ماذا تنتظر... اسند أباك... لنعُد إلى البيت...!

يتكئ أبي على كتفي، وهو يقول بصوت متعب خافت:

- لست خائفًا على نفسي... أنا خائف عليكم... عليكم... والله... عليكم من هذا الحقد الذي قد يحرق الأخضرواليابس... من الآتي...!

أما أهل الدوار فقد أدانوا ولد الناجي بلا محاكمة، وأجمعوا جمع القضاة على أنه هو الفاعل لا محالة... لكنهم سكتوا والتزموا الصمت... وكتموا الأمر... ولا أعرف هل خوفًا أم تضامنًا...؟!!

التحقيق الأمني صوَّب بوصلته نحو ولد الناجي... فالسلطة ليست في حاجة إلى أن تسمع ما في عقول هؤلاء الناس وهي بينهم في سِرٍّ دومًا، تتشكَّل وجوهًا متعددة ولا أحد يدري!!

حزن الوالد حزنًا شديدًا حتى أقعده الحزن ونكسه، استرجع قواه، فقمع فيه شهية الطعام والشراب وعجز ضعفًا عن أداء الصلاة التي غدا يؤديها قعودًا... لم تمر حادثة إحراق يعقوب مَرَّ السحاب في الصيف، بل أثَّرت فيه حتى أبكته بكاءً شديدًا، فرغم قسوة وظلم ولد قدور لم يكن يتصور أن الانتقام منه قد يكون بشعًا وهمجيًّا بهذا الشكل!! كما حزن على فراق ولد الناجي الذي صار مطارَدًا وانقطعت أخباره وأخبار أسرته،

كنت أظن أبي يُبرِّئ ولد الناجي الذي أكَّد دائمًا على طيبوبته رغم حِدَّة طبعه وحمية نفسه، لكنه أسرَّ لي ولأمي بعدما جلس بمشقة على فراشه، بخبرٍ صادم، قال في قلق وأنفاسه في تعب تسمع لها حشرجة في الصدر كأنه يتنفَّس من خرم إبرة:

- يا عزيز... من الآن لن أناديك إلا بعبد العزيز... تبرُّكًا بخامس الخلفاء الراشدين... الخليفة العادل... حفيد عمر بن الخطاب من جهة أمه... ومن جهة أخرى فالعزيز هو الله ولن تكون مهما ارتفعتَ وسموتَ إلا عبدًا من عباده... فأنت عبد العزيز... أما ولد الناجي... فقد فطر قلبي برحيله، وكان يؤنس وحدتي في المسجد الذي فرغ... وكنت أجد فيه وفي أخلاقه رجل المشورة الصادق... وما خِفتُ منه وقَعَ... نعم... فعلَتْ فيه تلك الصفعةُ فِعلَها القوي...!!

- عن أي صفعة تتحدَّث يا أبي؟!

- قبل رحيله بيوم... كان وابنتاه وزوجته بالسوق الأسبوعي... ولا أعرف ما الذي وقع بالضبط في السوق، جعل رجال الدرك يغضبون منه... فعنَّفوه ومرَّغوا كرامته في التراب سبًّا وشتمًا، ولم يكتفوا بذلك بل صفدوه وجالوا به بين أرجاء السوق كَلِصٍّ متلبِّس، وحينما انتفضَ غاضبًا صفعه أحدهم بقوَّة على الملأ... خبرتُ ذلك من عائلة زوجته، فقد أكَّد صهره، أنه بكى الليل كله، وأقسم على الانتقام... حتمًا تلك الصفعة غيَّرته إلى الأبد... فلم يعد له مكان هنا وبين الناس وقد شاهد الكلُّ كبرياءَه ينهار على دويِّ الصفعة السافحة لعِزَّة نفسه وكرامته...!!

11

صدق حَدسُ أبي فقد غيَّرت تلك الصفعة على الوجه ولد الناجي... روحَه... وكيانَه... ومصيره... وقَدَرَه، وجاء بالخبر اليقين نادل المقهى ذاتَ زوالٍ من أيام شهر إبريل... وهو بمكتبي كالعادة في خفَّة يقول:

- عندي لك خبر طري... أستاذ...!
- ماذا؟! هل عاد شرمولة إلى الحي...؟!
- شرمولة... في أفغانستان... التحق بطالبان...
- يا أحمق من أين أتيت بهذا الخبر...؟!
- مقدم الحي... قال إن الشرطة استنطقت أباه الأعور... ولم يُفِدهم بشيء... ثم أخبروه بعد أيام أنه التحق بأفغانستان... وصديقه «مول الصوصيط»!!

جال في خاطري... «أيكون هو إبراهيم ولد الناجي؟! مَن صديقه الذي يبيع النقانق غير إبراهيم ولد الناجي، وقد رأيتُه معه تلك الليلة...»!

- أتعرف اسم بائع الصوصيط؟!
- إبراهيم... صاحب عربة شواء النقانق... أمام سينما الأمل... الدكالي... ابن المقاوم ولد الناجي...!

صدقت يا أبي... تلك الصفعة خلخلت كيانه فاختار مصيرًا آخر...!!

تغير ولد الناجي وشرمولة ولطيفة، وتغيَّرت العقول والأفكار في أماكن أخرى، وجاءت الأخبار بشارةً وبردًا وسلامًا على زينة، أخبار أبردت غضبها، ونفَّسَت حقدها، فوجدت السلام الروحي الذي كانت تنشده... تمرَّد أهل بلدة آيت عساف على سليمان جبار وأعوانه... أرادت زينة أن تكون جزءًا

من التمرد... فاعلةً فيه لا متفرِّجة، فطوينا الطريق طيًّا بالسيارة إلى هناك...!

هذه هي قرية آيت عساف، قرية غارقة في اليأس والفقروالبطالة، تتوزَّع فيها بين الدروب دور معروفة للدعارة، وتجَّارللخمور... لا يخجل القوَّادون من الرجال في اعتراض طريقك لاستدراجك إلى بيت دعارة مقدِّمًا لك الأسعاروالمواصفات، كل مخادع الهاتف العمومية، بها لافتات كُتب عليها: «لا نظررقم الاتصال» علمت فيما بعدُ أن فتيات الجنس اللواتي يأتين إلى هنا، يوهمن عوائلهن أنهن في منطقة أخرى ويمتهنون أعمالًا شريفة، ومن شأن ظهور رقم المنطقة المعروفة باقتصاد الجنس أن يفضحهم.

ظهرجيل جديد من الشباب لم يحسب له حساب، فجيَّشوا الصدور والقلوب، وحشدوا الناس لمعركة ضد الفساد، وأقسموا ألا يعودوا إلى بيوتهم حتى يسقط سليمان جبار... فبدأت معركتهم سلميَّة، وحولهم قلة من الناس في البداية، نظَّموا وقفات أمام دارالجماعة، فتمَّ فضُّها بالقوة، وحوكم منهم الكثيرون، لكن مَن ظل خارج الأسوارحشد الناس... فالتحق الشباب والشيوخ والرجال والنساء والأطفال، فشلت الحياة الاقتصادية بالمنطقة، وتعطلت الدراسة، وتوقف الناس عن العمل، وعجَّتِ الساحات بالمتظاهرين... وفُتحت حلقات النقاش والتوعية... في مسيرة حاشدة انخرطت فيها بدون وعي فاستحضرتُ أحداث يونيو 1981 وعذابي القديم، وقررتُ اليوم وَأدَ هاجسي، وطيَّ صفحة الألم القديم، وساعدني في ذلك موجُ الحشود، سكينة القلب وسط الجموع، تبدد التردُّد بمشهد المرأة والعجزة والشيوخ والأطفال يمشون في المسيرات مشرعي الصدور... كم كنتُ جبانًا... لن أسمح لهاجسي بعد اليوم أن يُحوِّلني إلى مجرَّد تابع... كائن بلا موقف ولا فكرولا رأي...!!

تحرَّكوا كالبحرالهائج نحودارالجماعة، فغسلتُ بعَرَقهم وماءِ حماسهم ما عَلِق في صدري من وجع المعتقل... وما بقي في عقلي من خوف العواقب وسوء المآل... حاصروا سليمان في مكتبه وأنا وزينة بينهم... أنظرفي عيون

رجال الأمن المدجَّجين بالهراوات والدروع والخوذات بلا خوف أو ريبة... إن كانوا يريدون كسر العظام... فهذا جسدي قربانًا للحرية... للكرامة... تبدَّد في قلبي في فرحٍ هاجسي... خوفي... يا رب! أبي يقول: لا نموت إلا مرة واحدة... فلن أخشى من الموت بعد الآن...؟!

لا صوت يعلو غير الصوت المرعب الذي ردَّدته الحشود المتدفِّقة كالبحر الهائج الذي دوَّى مزلزلًا ومخيفًا: «لا... للفساد... يسقط جبار... لا للعار... لا للظلم...»!

ولم تنتظر زينة نهاية الأحداث... فالتحقَتْ مناضلةً شرسةً بركْب التغيير... قائدةً مفوَّهةً بين الحشود، ولمَ لا وقضيتُها قديمة... جديدة... أسمعها من سطح مقهى مطل على الساحة حيث الحشد تدفَّق وتدفَّق وتراقص كالموج العاتي... تعري الفساد... تفضح الظلم في مهده وتُعدِّده... تكشف ببراعة متعددة فتشخص سرطان الشبكة... واحدًا... واحدًا... وباتت مع مَن بات في العراء... والعجب أن سليمان فقد أهمَّ وأشرسَ أتباعه المومسات اللواتي كنَّ يَحسِمن معارك نصرة له بالعنف والضرب المبرح والفضائح... أقنعتهن زينة ولا حجة لها عليها غير مأساتها وحياتها... فاقتنعنَ وبشَّرتهُنَّ بغَدٍ أفضل كريم بلا استعباد... وفي حمية اللحظة شعرنَ أنهن جزء من هذا الطوفان، جزء من هذا الزمن الفارق... صوت واحد... مطلب واحد... «نريد تحرير البلدة من الطغيان...» فصِرن ضمن الحلم... يتنفسَّنَ هواء الحرية والعزة والكرامة...!

قاوم سليمان جبار، فخرج صديقه الإمام عبد العزيز... يفتي بين الحشود ويحذر من الفتنة، لكن الجماهير الغاضبة لفظته كعُملة مزيفة...!

طوَّقت تشكيلات الأمن الحشود، ووقعت مواجهات دموية... وإصابات بين الطرفين، وليسوا غير إخوة في الوطن والهمِّ والمِحَن... لم يثبط عزيمة الجموع المتحمِّسة رشقٌ بالقنابل المسيلة للدموع ولا الهراوات التي قضمت الظهور... بل استمرت المسيرات والاعتصامات... فَلانَ موقف السلطة، فسحبت القوات وخفَّفت الوجود الأمني، وأعلنت إقالة سليمان جبار

من مسؤولياته النيابية، ومن منصبه... لكن سقف المطالب علا بعلو الآمال والطموح، تخلِّي السلطة عن سليمان أقلُّ ما يمكن فعله... القرية المظلومة في كرامتها وأرضها، تريد المحاسبة واسترجاع الحقوق... أُغلقت دُور الدعارة... وغيَّروا المسؤولين في الأمن والسلطة... وحلَّت وجوه جديدة ليِّنة اللسان، رحيمة البنان، حريصة على صون الكرامة، وإحقاق القانون دون تمييز ولا شطط ولا حيف.

تم إلغاء عقود استغلال المناجم... طردت شركة المياه المعدنية وعادت العيون للناس... وفتحت ملفَّات الفساد... وبدأت المحاكمات... فعاد الهدوء وتنفَّس الناس في الصباح الموالي هواء الحرية والكرامة.

زُجَّ بسليمان في السجن... وكُشفت ملفاته الإجرامية... والدعارة والقمار... والاغتناء غير المشروع... هو الآن يقبع في السجن... وقد صُودرت أملاكه... أما «الساروت» الضابط المتقاعد فقد اختفى فجأةً، وقيل هرب للخارج...!

وحده ما زال يتردَّد على البلدة، الحاج عبد السلام، يخطب في الناس ويفتي، ولا أعرف كيف تسلَّل إلى العهد الجديد ووجد له موطئ قدم في المرحلة...؟! لم تعد أبدًا زينة... قررَتْ مصيرًا آخر بعدما شُفيت من آلامها... وعادت للأرض تزرعها والأشجار تسقيها، وكل صباح تزور قبر والديها، وتقرأ الفاتحة على روحيهما...

أُغلقت دور الدعارة، وتشدَّدت السلطة في المراقبة، ولم تعد المومسات يجدن الحريَّة المعهودة في استقطاب الزبناء الباحثين عن الجنس، وثم تشديد الرقابة على تجارة الخمور... فركد اقتصاد البلدة، اشتكى الجزَّارون، والخضَّارون، وأرباب النقل العمومي، ومالكو المقاهي والفنادق الرخيصة من الأزمة، فقد قلَّ الرواج ولم تعد البلدة مقصد الباحثين عن الجنس من كل صوب وحدب الذين يُنشِّطون التجارة والبيع والشراء والحركة، وبلغ بالناس اليأس حتى حنُّوا لعهد سليمان جبار... لكن الجيل الجديد من الشباب ظل مقتنعًا يردِّد ويُفحِم: «من أجل الكرامة نجوع...

ومن أجل الحرية والكبرياء لا يهمُّ أن نعيش أزمةً عابرةً، علينا أن ننخرط من الآن في بناء اقتصاد حقيقي... منتِج ليس أساسه الريع والعطاء والدعارة والفساد...»!!

ورغم ذلك ما زال مَن يحنُّ لعهد سليمان جبار، وما زال مَن يذكر عهده في حنين وحسرة...!!

تغيَّرت علاقتي بزميلي صابر... يبدو أن حواري معه يوم أراد أن يفتي في الفضيلة مسَّه في مقتل، شعرت به يومذاك محرَجًا، لم يعد عفويًّا في حديثه، وسكت عن محاضراته المألوفة سكوت الخائب والخائف، في حانة الطاحونة الحمراء، لم يعُدْ فارس الخطابة وحوله الفتيات والساقيات منبهرات مشدوهات. كان يقاسمني أحيانًا بعض الكؤوس ويغرق في تفكير عميق... شيء ما في طريقه إلى التحوُّل في داخله...!

بداية الحكمة... الرياضة على الصمت... والعزلة باب من أبواب التأمل الوجودي...

ازداد عزلةً ووجومًا بعدما وصلَه خبر انتحار أسماء... نعم، انتحرت أسماء بعدما فقدت الحلم والعالم الذي حلمت به... هزَّه الأمر حتى كاد يقتله... انقطع عن العمل... ورحل... فقط خرج ولم يعُدْ... وجاءت الأخبار من زاوية «البودشيشيين» بقرية «مداغ»... لم يجد صابر من طريقةٍ للهروب من الألم والخيبة والندم السافح للسكينة سوى التصوف... لزم الزاوية... مؤمنًا يغسل جسده وروحه... وأنا في المكتب أتابع أخباره وقد غدا مريدًا... مطيعًا... هادئًا... ذاكرًا في عشق وجداني محبًّا لأهل الله...

وطال الغياب...

عاد ذات يوم، لم يتغيَّر فيه شيء في مظهره، ظل حليقًا في بدلته العصرية، لكنه منشرح الصدر، باشًّا... كأنه غسل روحَه بفيض نور... فلزم المسجد... لا تفوته صلاة... ولا أدري أي قوة هذه ساعدته على غسل صدره من الندم العميق... ومن الإحساس بالذنب... داس على السجائر كما قضَى على الرغبة في الكأس بكأس يسميها كأس النور الرباني التي

تُسكِر... ويقول في انشراح: «خمرة التصوف... مَن ذاقها لن يشرب خمرةً غيرها...». والحقيقة أنني لم أكن أفهمه لكن زال غضبي منه وقد ظل على طبعه مرحًا دون تشدُّد مُحبًّا للكل خدومًا... وتخلَّص من الشُّح... وفارق إلى الأبد شهوة المال والطمع... فاكتفى بعمله دون غيره من الأشغال...!

وزارتنا فجأة لطيفة... لم تُسلِّم كالعادة... فقال لي صابر أمامها:

- الأخت لطيفة لها الفضل بعدَ الله في توبتي...!

قلت في استغراب:

- كيف... وقد كانت مختفية عن العيون...؟!

يبتسم ويقول:

- لم تختفِ... بل فقط... لم تعُدْ ترغب في رؤيتي... إلى أن زارتني في البيت... فوجدتني على شفا الانتحار أو الموت كمَدًا... فأخذتني إلى الشيخ... إلى الزاوية...!

تنظر إليَّ نظرة فيها عزاء ورحمة:

- وأنتَ... ألن تنضمَّ إلى رجال الله... وتنتهي من العبث؟!

- رجال الله...! كم مِن وَليٍّ يمشي بيننا بلا قُبَّة... كم قُبَّة بلا ولي... رجال الله... لا يعتزلون الناس... بل هم بين الناس!

تبتسم، وهي منصرفة مردِّدة دون أن تلتفت وصابر يشيعها في حبور وسكينة عكسَتْهما تقاسيم وجهه الذي صفا صفوًا جميلًا: « يومًا ما... ستشرب من الكأس الصافية... وتعرف لذة أن يكون لك شيخ...»!